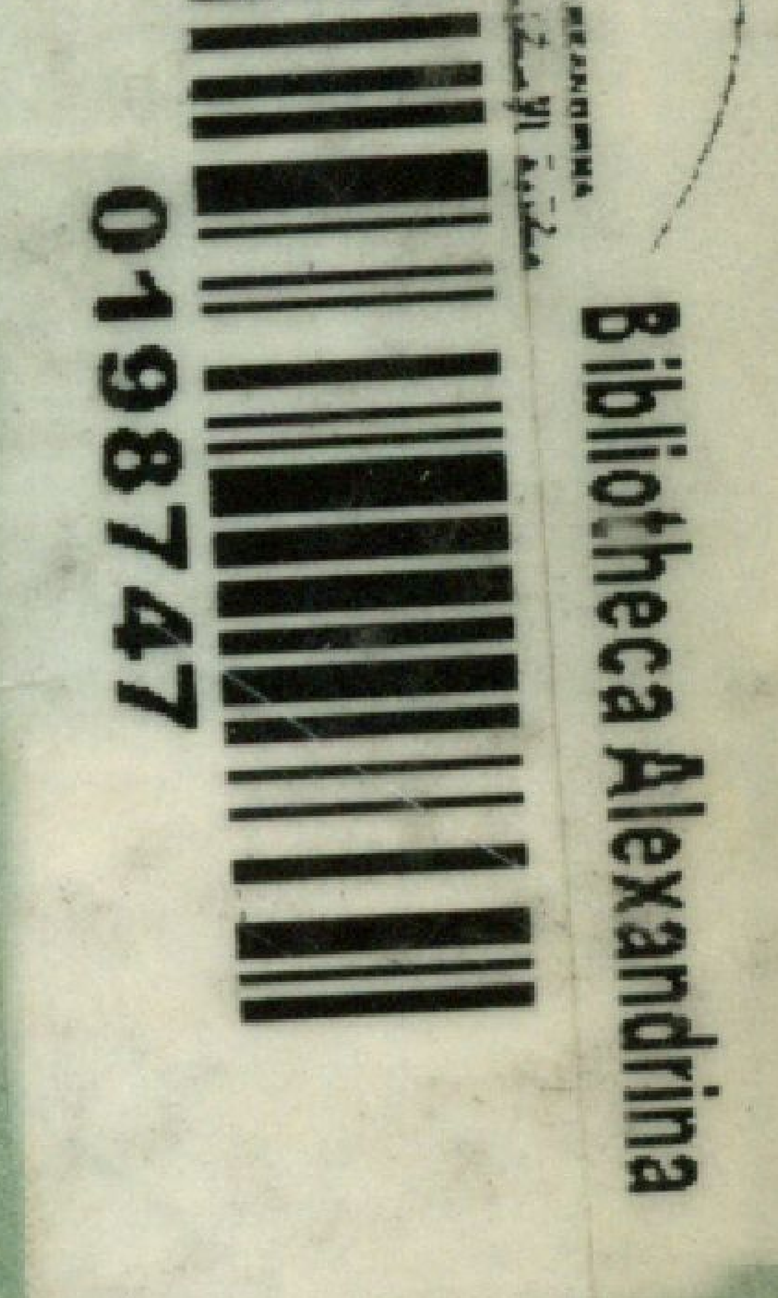
# طارق بن زياد

محمد صبيح عبد القادر





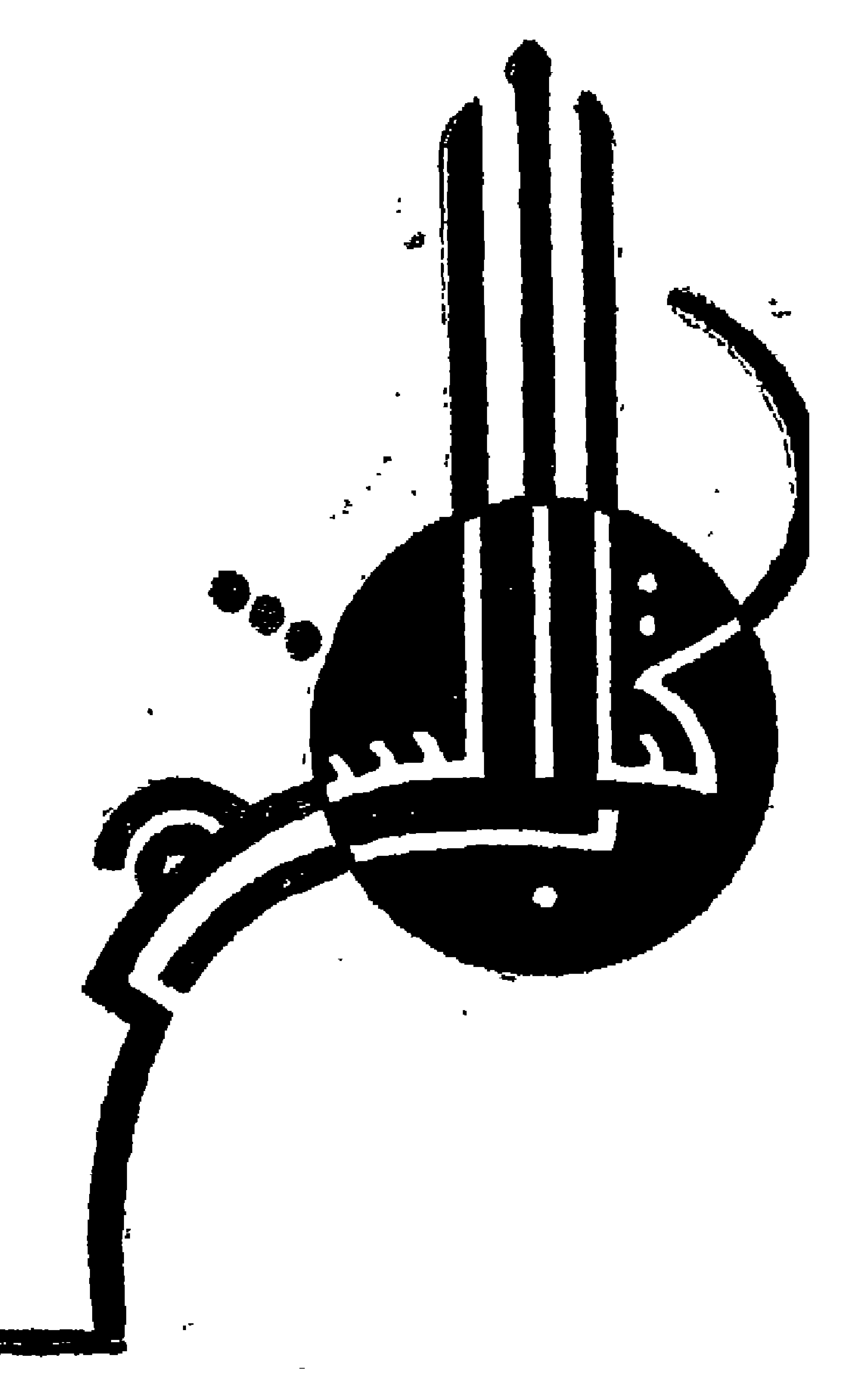
# طارق بن زياد

محمد صبيح عبد القادر

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي



# طارق بن زياد

DL

محمد صبيح عبد القادر

كتاب الشهر القادم

محمد عليه السلام

بقلم محمد صبيح

كما ستصدر في نفس الشهر

الطبعة الجديدة من كتاب الشهر

محمد عليه السلام

بقلم فتحي رضوان

# آية الله ...

ومن آياته أن خلق لكم من
انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها
وجعل بينكم مودة ورحمة
صدق الله العظيم

يشاء الله ، الحكيم فيما هدى ، الكريم فيما انعم أن يكون كتابي هذا - عن طارق فاتح الاندلس - هدية أيضا ، ولكنها هدية لزوجي وشريكتي فى الحياة ، التي اكون معها من هذا الشهر أسرة جديدة تقوم على تقوى الله وحب الوطن . . نسأله تباركت آياته ، ان يجعلنا دائما من الذين يرددون فى الصباح وفى المساء وفي كل وقت : « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » .

١ - ٨ - ١٩٣٩

# تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

استمر شعار الاسلام قائما في الاندلس ثمانية قرون من عام الفتح (٩١ هـ) إلى العام الذى سقطت فيه غرناطة (٨٩٧ هـ) .. وكان خروج آخر أمير مسلم من الاندلس مؤذنا بأن تخبو هـذه الشعلة الوهاجة المشرقة من الحضارة، التى ظلت تنشر الضـوء والدفء طوال هـذه القرون . . وتأخذ عنها أوربا قبسا بعد قبس في تردد الجاهل، وحمق الدعى . فلما خبت الشعلة بعد عام ١٤٩٢ م، عم الاندلس ظلام جديد، ووصلت حياتها تحت حكم فردناند وايزابل، بحياتها أيام غلبـة القوط ( Visigoths ) عليها، قبل أن تعرف الاسلام ويعرفها .

عاد فردوس المسلمين إلي حكم المسيحية في القرون الوسطي، فغاض معين الحياة فيـه، وتساقط زهره وثمره وعصفت الريح باعواده وشجره، فبعد أن كان

في الأندلس سبع مئة ( ٧٠٠ ) مكتبة عامة يرتادها الناس للدرس والبحث في شتى أنواع العلم والفن والمعرفة وبعد أن كان في مكتبة قرطبة وحدها نصف مليون كتاب ، اصبحت كلمة « كتاب » في ذاتها احدى الجرائم التي ينبغي الحذر منها . وقد ظلت مدريد عاصمة الحكم الذي خلف حكم الاسلام — لا تضم مكتبة عامة واحدة حتى القرن الثامن عشر الميلادى . ولم تفتح مغاليق مكتبة الاسكوريال إلا على يدى مغربي في العصر الحديث ! !

وفي البلاد التي عاش فيها ابن رشد ، وغيره من قادة الفكر العالمي وشيوخ الفلسفة ، كان المتحدث عن نظريات نيوتن وهارفى يستحق عناية محكمة التفتيش ، التي توجه له تهمة الالحاد .. وعقوبة الملحدين ، هي الموت بعد التعذيب الشديد .

وبعد أن كانت مدائن الاندلس الاسلامي تزخر بطلاب العلم والتجار والفرسان الشجعان من جميع انحاء العالم ، أصبحت طرقات هذه المدائن — في حكم المسيحيين — مزدحمة ، ولكن بملايين السائلين والرهبان والسراق . .

بل وصل الامر إلي هدم جميع الحمامات التى خلفها الحكم الاسلامي ، وتخريبها ، وذلك لان النظافة من عادات المسلمين ، ولا ينبغى أن يتبقى في اسبانيا اى ظل من عادات هؤلاء القوم الذين طردوا عبر البحر الى افريقية !!

وكانت هذه الردة الي الجاهلية العمياء سببا في ضياع أسانيد التاريخ ومراجعه ، التى يمكن أن تطالع فيها صحائف القرون الثمانية التي عاشها الاسلام فى الاندلس كما أن عناية علماء الاستشراق اتجهت الي الشرق الاسلامي أكثر مما اتجهت الي الغرب الاسلامى لان الشرق كان مقر الخلافة ومحيط الصراع بين نظريات السياسة وأحزابها وخلافات الدين ورجاله . وعلى الرغم من أن صور الحياة الاسلامية في الاندلس كانت تختلف عنها فى آسيا فى كل شيء : فى نظام الحكم ، والاجتماع ، ومكانة المرأة وأزياء الناس، وفى الادب والتفكير والعمارة وطرائق التعامل . على الرغم من هذا كله فقد كانت العناية بالاندلس قليلة .. قليلة حتى ليجد الباحث الحديث أعظم الجهد وأكبر المشقة فى تتبع هذا القسم من تاريخ الإسلام . فليس بين أيدينا من المراجع الهامة إلا نحو

عشرة كتب وفيها من الاجمال — وعلى الاخص فى فترة الفتح الاول — ما يحمل أحيانا على الضيق الشـــديد . وخصوصا اذا راعينا أن فتوحات العرب فى العراق والشام ومصر ظفرت بتفصيل من المؤرخين القدماء يبعث أحيانا الى الملل ! !

* * *

وأرجو أن يعلم القراء ـ من الآن ـ أنى لا أؤرخ في هذا الكتاب شخصية طارق بن زياد ، وانما اتخذت من إسمه ـــ كأظهر اسماء الفاتحين في الاندلس عنوانا للكتاب لا أكثر .. بل اسرع فاقول ان شخصية طارق نفسها محاطة بغموض شديد، ولا يكاد الباحث يظفر بلمحات قصيرة لا تغنى ولا تفيد.. ورأيت لكي اتحدث عن فتح الاندلس، ان أسير مع جيوش الاسلام من الاسكندرية إلي الغرب ، نجتاز طرابلس تحت قيادة عمرو بن العاص ، ثم نجتاح تونس وبقية بلاد الاطلس حتي نصل إلي المحيط الاطلنطي. ومن هناك.. من طنجة ننحدر إلي الاندلس، ونشهد فتحها، ثم نقف قليلا مع الفاتحين في جنوب فرنسا، ونعود فنرتد إلى جبل طارق لنلقي نظرة عامة شاملة على اعلام الاسلام وهي تعلو ربي الفردوس وتظلل وهاده ثم

نراها وهي تنخفض وتعبر البحر مرة أخرى إلى افريقية.
وسنرى في هذه الرحلة الوانا من المشقة الممتعة كل الامتاع.
وسنعرف من الاسماء المشهورة إلى جانب طارق — فاتح الاندلس — هؤلاء الابطال الامجاد الذين مهدوا لهذا الفتح باخضاع الشمال الافريقي كله لسلطان الخلافة المحمدية، ومنهم عمرو بن العاص وعقبة بن نافع وزهير بن قيس وموسي بن نصير . . . . . .

وأنا واثق من أن بعض هذه الاسماء سيشق علي ذاكرة بعض القراء فلا يكادون يلمون بها حتي تزول - واني التمس لهم العذر. فقد درسنا ايام التلمذة، وتعودنا في مطالعاتنا الخاصة ان نعرف كل شيء عن الفاتحين في الشرق الاسيوى واما هؤلاء الابطال الذين غرسوا رايات محمد عليه السلام حتي وطئت اقدامهم المحيط الاطلنطي وجزائر البحر الابيض فما أقل ما نسمع وما نعرف عنهم. وما أشبههم بهؤلاء الجند المجهولين الذين يبنون بايديهم اضخم الامجاد وارفعها شأنا، ثم تذهب اسماؤهم مع النسيان ولا يبقي إلا عملهم.

ولما كانت هذه هي المرة الاولي التي يؤرخ فيها فتح افريقية والاندلس، فقد عنيت بأن أشير الي المراجع كلما تسنح الفرصة، وإني أطمع وانا اختم هذه المقدمة

ان يكون كتابي هذا حافزا للباحثين على مواصلة السعي واطالة البحث ، حتي تظفر المكتبة العربية عن هذه الحقبة من تاريخ الاسلام بمؤلفات تناظر على الاقل ما الفه الغربيون عنها. ونخص منهم بالذكر المؤلف النفيس لدوزى وتعليقات بسكوال جيا نجوس على ترجمته لكتاب نفح الطيب فى تاريخ الاندلس الرطيب، وكتاب لين بول وغيرهم .

نسأل الله العون التوفيق ؟

صبح

القاهرة فى يوم الخميس ٢٦ جمادي الاول سنة ١٣٥٨
١٣ يوليو سنة ١٩٣٩

الكتاب الاول

# من البحر الى المحيط

وصف عمرو بن العاص البحر لامير المؤمنين عمر بن الخطاب فقال :

« اني رأيت خلقا كبيراً يركبه خلق صغير ليس ، إلا السماء والماء . ان ركد خرق القلوب، وان تحرك أزاغ العقول . يزاد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق . . »

وكان عمرو بن العاص قد طلب الاذن بركوب البحر وغزو قبرس ، فلما وصف البحر بهذا الوصف المخيف ، أبى عليه أمير المؤمنين هذا الغزو ، وكتب اليه يقول :

« .. فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر (البحر) وبالله لمسلم أحب إلي مما حوت الروم . »

— ١ —

## شيخ الفاتحين

أسرع البعير براكبه يجتاز هذه الشقة الباقية من الطريق إلى المدينة ، وهو يسرع كأنما طائر يسبح في الهواء ، وخفق قلب معاوية خفقا سريعا ، فبما قليل سيدخل القرية الطيبة التي طال بعده منها ، منذ خرج مع جيش عمرو بن العاص غازيا في مصر ، وسيلقى فيها أمير المؤمنين ، ويزجي اليه بشرى الفتح ، وسيرى وجوه الصحابة والقرابة والأهل أجمعين ، وقد كساها البشر ، واضاءها الايمان . . قال معاوية ، وهو يقص قصته :

« قدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد . ثم دخلت المسجد ، فبينما أنا قاعد فيه ، اذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب ، فرأتني شاحبا على ثياب السفر ، فأتتني فقالت . من أنت .. قلت : أنا

معاوية بن حديج رسول عمرو بن العاصي(١). فانصرفت عنى ، ثم أقبلت تشتد ، اسمع حفيف ازارها على ساقها أو على ساقيها حتى دنت منى فقالت : قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك . فتبعتها فلما دخلت فاذا بعمر بن الخطاب يتناول رداءه باحدى يديه ، ويشد ازاره بالاخرى . فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير يا أمير المؤمنين . . فتح الله الاسكندرية .. فخرج معى إلى المسجد ، فقال للمؤذن: اذن فى الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس . ثم قال لى : قم فأخبر اصحابك . فقمت فأخبرتهم . ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات، ثم جلس فقال : يا جارية هل من طعام ؟ . فأتت بخبز وزيت . فقال : كل . فأكلت على حياء . ثم قال : فان المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك . فأصبت على حياء . ثم قال : يا جارية هل

(١) كثيرا ما يرد اسمه هكذا بالياء ، وهكذا كتبه بن عبدالحكم فى كتاب فتوح مصر والمغرب الذى تنقل عنه هذه الرواية

من عمر ؟ . فأتت بتمر فى طبق . فقال : كل . فأكلت على حياء . ثم قال : ماذا رأيت يامعاوية حين اتيت المسجد . فقلت : ان امير المؤمنين قائل ( مستريح فى القيلولة ) . قال : بئس ما قلت او بئس ما ظننت . لئن نمت النهار لأضيعن الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسى . . فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية ! ! »

ولا والله ما نام امير المؤمنين ، ولا فتر لحظة عن التفكير فى شأن هذه الامبراطورية الواسعة التى أصبح سيدها . . ولا والله ما هدأ فؤاده فى مشرق الارض ومغربها عن مشاورة أمير المؤمنين ، وطلب اذنه فى الاندفاع إلى اطراف الدنيا ، حتى لا يخرج عن سلطان التوحيد المحمدى شبر من أرض أو حفنة من ناس . . لاتصدهم صحراء ، ولا يرهبهم ماء ، ولا يقف أمامهم عائق من عوائق المادة ، فقد شلت أرواحهم عن كل شىء ، وذلت لمعنويتهم عناصر الكون كله

ركز عمرو بن العاص أعلام الاسلام على أبراج الاسكندرية ، — عاصمة بحر الروم وعروس مدائن الدنيا — ثم تلفت في كل وجه ، تلفت الحائر — الذي لم يقنع بعد بما أفاء الله عليه من فتح ، وما قبضت عليه يمينه من أمجاد عراض . . كان البحر أمامه ، لم يكن له فيه أرب ، وكان النيل وراءه ، والنيل منذ اليوم تحت سلطانه ، وفي الشرق آسيا التي انحدر هو منها الى هذه الارض . . إذن فليول وجهه شطر الغرب ، وليندفع بجنده ليجوز لوبيا (١) ويقتحم البلدان والقرى ويهتف مع جنده حيث حل هتاف محمد الخالد : الله أكبر . . الله أكبر

كان ذلك في عام ٢٢ للهجرة ، وكان هذا الاقليم الذي يسميه الاغريق ( بنطابولس ) ضعيفا في مقاومته . حتى ان

١ـ يذكر بطلر نقلا عن المسعودي وغيره انه كان في اقليم لوبية أربع وعشرون مدينة ماعدا القرى الصغيرة . ويذكر أن كل أرض الساحل الواقعة الى غرب مصر بقيت آهلة يزكو بها الزرع حتى مضت قرون ثلاثة من الفتح العربي

بطلر يذكر عن زحف العرب اليه انه كان نزهة لفرسانهم ، ولم يلقوا فى سيرهم هذا كبير كيد . فلا يذكر أنه قد وقع قتال حتى بلغ العرب برقة ، والظاهر أنها سلمت لهم صلحا ، على أن تدفع للعرب ثلاثة عشر الف دينار جزية معلومة كل عام . وقد جاء فى شروط ذلك الصلح شرطان عجيبان : الاول انه أبيح لأهل برقة أن يبيعوا أبناءهم ليأتوا بالجزية المفروضة . والثانى أنه كان عليهم أن يحملوا الجزية الى مصر حتى لا يسمح بدخول جباة الجزية الى بلادهم .

وسار عمرو بن العاص بعد برقة الى طرابلس . فحاصرها شهراً . وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم فى مرساها . فلما جاء الجزر . وانكشف الماء عن الشاطىء . اقتحم العرب الطريق بين البحر والمدينة . ثم كبروا تكبيرهم . وما أفاق الحراس من الدهشة إلا وسيوف المسلمين تعلو رءوسهم . ففروا . وتمكن بعض رجال بيزنطة من الوصول الى بعض قطع أسطولهم الذى كان

يرسو غير بعيد . وهربوا بجلودهم . وكان عمرو بن العاص — شيخ الفاتحين بحق — يجتمع مع نظيره خالد بن الوليد في سرعة الخاطر . وسرعة الحركة . فما أن وضع يده على مدينة طرابلس حتى اندفع دفعة أخرى الى مدينة صبره (١) ولم يكن في حساب أهلها أن العرب سيقدرون على اقتحام طرابلس إلا بعد جهد طويل . وان مسيرهم اليهم سيطول فكان وصول خيل المسلمين عند فجر أحد الايام الى مدينتهم مفاجأة لهم لم يزلها من نفوسهم إلا تسليمهم لعمرو ابن العاص .

وبفتح هذه المدينة دانت طرابلس كلها أو (بنطابولس) لحكم الاسلام . وكتب عمرو الى أمير المؤمنين في المدينة يقول له :

---

١ هكذا وردت في كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى وفي ابن خلدون . وورد في ترجمة بطلر أنها سبره ، وهي مدينة زوارة الآن

« أننا قد بلغنا طرابلس . وبينها وبين افريقية (أى تونس) تسعة أيام . فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل . »

ولكن أمير المؤمنين كان يحب الاناة والتؤدة ، ويكره أن يبتعد عنه صحابة رسول الله فى هذه الاقطار النائية . فرد على عمرو يقول له ان أفريقية مفرقة فعد . . .

فعاد فاتح مصر من اقليمه الجديد وهو كاره . وخلف على حكم طرابلس أحد قواده الشبان من ذوى قرباه . وهو عقبة بن نافع

— ٢ —

## أصحاب محمد

انقضت أيام عمر بن الخطاب . وتولى الخلافة من بعده عثمان بن عفان . فكان من أول أعماله أنه عزل عن ولاية مصر أميرها وفاتحها عمرو بن العاص . وولى بمكانه

عبد الله بن سعد بن أبى السرح أخاه فى الرضاعة .

ورأى عبد الله أن يحقق حلم سلفه . ويستمر فى غزو افريقية . ويندفع بجيوش المسلمين دفعة أخرى نحو الغرب فكتب الى عثمان بن عفان يستأذنه فى المسير للفتح . ولكن عثمان يعلم أن عمر بن الخطاب . كان قد أبى امتداد الفتح الى الغرب . فكتب الى واليه على مصر يقول له : انى ماأرى فتحها خيراً . وقد كرهها عمر من قبلى

اكتفى عبد الله بن سعد من الفتح الذى كان يطمح فيه ، بتوجيه الرجال يغيرون على أطراف المغرب ويأتون بالغنائم . ويبعث منها الى عثمان . فلما رأى عثمان هذه الغنائم عاود التفكير فى أمر الفتح ورأى ألا يقطع فيه برأى حتى يشاور الصحابة . فأشار عليه على بن أبى طالب . وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص بأن يسن سنة سلفه ، ولكن فكرة الفتح ألحت على عثمان وظلت تعاوده فى كل لحظة فحزم أمره . وقرر أن يسير جيشا لفتح المغرب . .

وفى صباح يوم كان شباب الصحابة ، وابناء المجاهدين الاول قد تجمعوا فى المسجد ، يريدون تلبية داعى الاسلام ، والسير إلى افريقية ، وخرج عثمان ، فوجد عبد الرحمن ابن ابى بكر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص (١) وغيرهم كثيرين . . يقول الواقدى : فلما نظر الناس الى وجوه الصحابة وابنائهم قد اجتمعوا ، اقبلوا على الجهاد طائعين ، ولدعوة عثمان مجيبين . فلما اكتملوا ، عرضهم عثمان ، واذا هم اربعة آلاف فارس وثمان مئة رجل من اخلاط القبائل. فتجهزوا بما امكنهم، وأعانهم عثمان بألف بعير باقتابها ، وفتح خزانة السلاح وفرقها عليهم وعلى قوادهم . وأمر عليهم مروان بن الحكم .

وقام عثمان فى الجيش خطيبا فقال :

ايها النـاس . انكم أصبحتم بدار لا يصلح فيها

---

١) ذكرت المراجع مثل الاستقصا ، ان الحسن والحسين ابني على بن ابي طالب كانا فى هذا الجيش

التضجيم والتوانى . وقد رأيتم عمر بن الخطاب وما فتح
الله على يديه من الشام ومن بلاد الاعجام وارض مصر .
وكانت أهل هذه البلاد أشد قوة ، واكثر عددا ، وأحسن
سلاحا ، وأغزر مالا .. وفتحها الله على عباده بتقوى الله
الذى يبقى ويفنى ماسواه ، وانا أرجو الله ان يفتح عليكم
ويظفركم بها ، ويعينكم عليها ويفتحها الله عليكم بمنه وكرمه.
ولقد كتبت إلى عاملى بمصر عبد الله بن سعد ، وعهدت
اليه أن يحسن صحبتكم وأن يرفق بكم ، وان يكون عند
عهدى وأمرى ان شاء الله ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ،
وحسبنا الله ونعم الوكيل . فسيروا رحمكم الله والله خليفتى
عليكم . . .

وسار الجيش القليل بعدده ، والكثير بأمله
حتى جاوز المدينة ، والشيخ الطيب - عثمان بن
عفان - يتابعه بنظره ، ويدعو الله أن يوفقه وينصره ..

وهناك فى مصر ضم عبد الله بن سعد إلى جيش

المدينة جيشا من عنده ، بلغ فى تقدير عشرة آلاف ، وفى تقدير آخر نحو ضعف هذا المدد ، وزحفوا بجمعهم على ساحل البحر ، حتى وصلوا إلى برقة ، وكان ذلك سنة ست وعشرين هجرية .وفى برقة لقيهم عقبة بن نافع واليها، وسار الجميع حتى وصلوا الى طرابلس ، واستردوها ثانيـة من الروم ، واستمروا حتى حـدود تونس ...

وكان الشمال الافريقى كله من حدود طرابلس الغربية حتى مدينة طنجة ، أى حتى ساحل المحيط الاطلسى لا يزال تحت حكم الروم ، وحاكمها من قبل بيزنطة ، كان يؤدى لعاصمة الاغريق خراجا معلوما كل عام .. وكان العـرب يسمونه « جرجير »

طرق المسلمون بقبضاتهم القوية ابواب « جرجير » هذا ، فأطل عليهم من مملـكته ، يسأل عن شأنهم .فقالوا: الاسلام يارجل . هلم ادخل فى هذا الدين الذى دخل فيه اهل مصر .. فرفض « جرجير » فى غضب ، فأرسل اليه

عبد الله بن سعد : حسنا . لا نريد أن تسلم .. اذن أد لنا الجزية عن يد وانت صاغر. فقهقه جرجير. وقال: اتريدون ان يتسامع الملوك بأني ذلك لكم . . لا وحق المسيح . ولأرينكم من صنوف الحرب مالم تروه عند غيري .

وحشد جرجير جيشه ، فكانت عدته مئة وعشرين ألف مقاتل . وكانت الانباء قد أبطأت على عثمان بن عفان ، فخشي أن يكون المسلمون قد نكبوا في هذه البلاد البعيدة فأعد مددا ، وأرسل على رأسهم عبد الله بن الزبير ، واوصاه أن يسرع اليه بالاخبار . وقد وصل المدد في ساعته المناسبة ، قبيل اشتباك جيش مصر والمدينة ، وجيش الروم والبربر . .

وبدأ القتال ، وبحث عبد الله بن الزبير عن القائد العام عبد الله بن سعد ، فلم يجده ، ودار هنا وهناك ، حتى وجده في مكان بعيد . فسأله عن شأنه . فقال : سمعت منادي جرجير يصيح في قومه : من قتل ابن ابي السرح

فله مئة ألف دينار ، وأزوجه ابنتي .. فتبسم عبد الله ابن الزبير وقال: ونحن نكيده من جنس كيده وأشار على عبد الله ابن سعد ان ينادي بدوره في جنده : من قتل جرجير فله مئة ألف دينار ، وأزوجه ابنة جرجير ، واستعمله على بلاده . فبلغ قائد الروم هذا النداء ، فخاف خوفاً شديداً ، وخيل اليه أن هذه الكثرة من الجند ان تغنيه عن الهلاك شيئاً .. وكان عبد الله بن الزبير مشيراً حكيماً ، فقد نصح عبد الله بن أبي السرح بأن يختار من الجيش جماعة من الصحابة ، وأبطالهم المشاهير ، ويأمرهم بأن يكمنوا غير بعيد ، حتى إذا طال اشتباك القوم بالقوم ، ووهنت السواعد ووجفت قلوب الفريقين ، انحدر هؤلاء الجند الكرام على الأعداء ، يفتكون بالاعداء ما أمكنهم الفتك . . . ونفذت هذه الخطة ، وكان رأس هذه الحملة الجديدة صاحب فكرتها عبدالله بن الزبير .. فما لبث الروم والبربر وقد حسبوا أن قوة المسلمين قد وهنت ، أن

رأوا هجوما عنيفا ينقض عليهم انقضاض الصواعق ويسد عليهم المسالك كلها — فوقع فى صفوفهم الاضطراب ، وشاعت الفتنة ، واندفع ابن الزبير صوب جرجير ، فجال معه جولتين ، وما لبث أن صرعه ، واحتز رأسه . . . فكانت له الجائزة : ابنة جرجير ، والمال الوفير . . وأما ولاية الاقليم فقد رغب عنها ، لانه وعد عثمان بن عفان أن يعود اليه على عجل بنبأ الفتح ، ثم إن له فى المدينة نفسها مآرب وأطماعا ! !

وتمت هزيمة الاعداء ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة حتى بلغ خمس المال الذى أرسل إلى عاصمة الخلافة مليون دينار ، وكان نصيب كل فارس من الجيش ثلاثة آلاف دينار ، ونصيب كل رجل الفا ..

## فى مدينة الرسول

ولما وصل عبد الله بن الزبير إلى المدينة تلقاه أمير المؤمنين عثمان بلهفة ، فلما دفع اليه نبأ النصر ، قرت عينه ورضيت نفسه ، وسجد لربه شكرا .. ثم خرج إلى المسجد وخاطب المسلمين بقوله : أيها الناس ان الله قد فتح عليكم افريقيه ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها ان شاء الله

فوقف عبد الله بجانب المنبر ، وخطب القوم خطبة فريدة ، وصف فيها مسير الجيش ، وما كان بينه وبين أعدائه إذا بدأ القتال ، وما كان بينه وبين الله إذا جاء الليل واستراح العسكر ، من ذكر لله وقراءة للقرآن حتى يسمع للمسلمين « دوى كدوى النحل » .. قال عبد الله :

(١) الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين

(١) راجع الجزء الثانى من العقد الفريد

بعد البغضة ، الذى لا يجحد نعماؤه ولا يزول ملكه . له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله . انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم ، فاختاره بعلمه ، وائتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعوانا تقذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته فآمنوا به ، وعزروه ، ووقروه وجاهدوا فى الله حق جهاده . فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح والبيع الرابح . وبقى منهم من بقى ، لا تأخذهم فى الله لومة لائم

أيها الناس ! رحمكم الله . اننا خرجنا للوجه الذى علمتم ( افريقية ) ، فكنا مع وال حافظ ، حفظ وصية أمير المؤمنين . وكان يسير بنا الابردين ( الغداة والعشى ) ، ويخفض ( يكف عن المسير ) بنا فى الظهائر ، ويتخذ الليل جملا يعجل الرحلة من المنزل الجدب ، ويطيل اللبث فى المنزل الخصب . فلم نزل على أحسن حالة نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى افريقية ، فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل ورغاء الابل ، وقعقعة السلاح . فاقمنا أياما نجم

كُراعنا ( نريح خيلنا ) ، ونصلح سلاحنا ثم دعوناهم الى الاسلام والدخول فيه فابعدوا منه . فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح ، فكانت هذه أبعد . فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأناهم وتختلف رسلنا اليهم . فلما يئس منهم قام خطيبا فحمد الله واثنى عليه . وذكر فضل الجهاد وما لصاحبه اذا صبر واحتسب . ثم نهضنا إلى عدونا ، وقاتلناهم أشد القتال يومنا ذاك . وصبر فيه الفريقان فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة واستشهد الله رجالا من المسلمين فبتنا وباتوا وللمسلمين دوى بالقرآن كدوى النحل . وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا مصافنا (أماكننا) التى كنا عليهم بالامس ، فزحف بعضنا على بعض ، فأفرغ الله علينا صبره ، وانزل علينا نصره ، ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئا واسعا بلغ فيه الخمس خمس مئة ألف فصفق ( اودعها الخزائن ) عليها مروان بن الحكم فتركت

المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النفل وأنا رسولهم الى أمير المؤمنين أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد وأذل من الشرك.. فاحمدوا الله على آلائه وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين »

وينبغى لنا ونحن نعود بخيالنا إلى هذا العهد الزاخر بأمجاد الفتح ومظاهر البطولة ، أن نذكر هذا الخليفة الطيب اللين عثمان بن عفان بكلمة حمد وثناء . فهو على الرغم من كل ماقيل عن حكمه وادارته ، قد خطا بفتوح الاسلام خطوات ابعد مما أراد عمر بن الخطاب وحسبنا أن نذكر أنه أباح ركوب البحر للمسلمين ، فغزا معاوية ابن ابى سفيان قبرس وضمها إلى ملكه ، وبذا تأسس أول اسطول بحرى للمسلمين كانت قاعدته الكبرى الاسكندرية ، وقد تمكن فى عهد عثمان (عام ٣١ هـ) من أن يهزم اسطول بيزنطة بالقرب من الثغر المصرى الكبير فى معركة كبيرة تسمى ذات السوارى . وقد ذكر أن

وحدات الاسطول المصرى بلغت اذ ذاك الف سفينة ومئتين . . .

ونحن هنا نقدم لفتح الاندلس بذكر فتوح المسلمين فى افريقية ، وقد اوقفها عمر بن الخطاب عند حد معين لاتتجاوزه ، ولكن عثمان بن عفان اباح التوسع ، وارسل الامداد ، وهذه منطقة تونس تضاف فى عهده إلى ملك المسلمين . . .

بل ان ابن الاثير يذهب خطوة أبعد ، فيقول فى انباء سنة ٢٦ هـ ولما افتتحت افريقية أمر عثمان عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن القيس أن يسيرا إلى الاندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وكتب عثمان الى من انتدب معهما: « أما بعد ، فان القسطنطينية انما تفتح من قبل الاندلس فخرجوا ومعهم البربر ، ففتح الله على المسلمين وزاد فى سلطان المسلمين مثل افريقية . .

ونحن لانميل الى تصديق هذه الرواية ، فما كان يمكن

التفكير في فتح الاندلس ، ولم يزل المسلمون في تونس ، وامامهم عمل كثير حتى يكمل لهم الاستيلاء على بقية بلاد الاطلس ، والوصول الى طنجة ، مفتاح الاندلس . ثم ان البربر ، الذين يذكر ابن الاثير انهم كانوا في جيش هذا الفتح المزعوم ، لم يكن الاسلام قد دخل قلوبهم بعد ، حتى يطمأن لهم في تأليف الجيوش ، بل سنرى بعد حين كيف ثاروا ، وارتدوا عن الاسلام ، وكلفوا المسلمين خسائر فادحة . . .

والذى نلاحظه بصفة عامة أن ابن الاثير والطبرى كانا زعيمى التاريخ الاسلامى فى كل مايتصل بشؤون الشرق الاسيوى ، ومقر الخلافة . . وأما شؤون المغرب الافريقى ، والاندلس من بعده . فكان حظهما من العلم بأحواله ضئيلا . حتى نرى ابن الاثير نفسه يثور على الطبرى فى أكثر من موضع . ويلومه على إيجازه وأخطائه ويقول ان مؤرخى المغرب أدرى بشؤونهم

نعود بعد هذا الاستطراد . فنقول ان فكرة فتح القسطنطينية عن طريق الاندلس أى بالمسير اليها من غرب أوربا الجنوبى . والمرور بفرنسا وايطاليا وبلاد الاغريق ( البلقان ) التى أنطق بها ابن الاثير عثمان بن عفان كانت فيما بعد من أهم الحوافز التى حملت المسلمين على اقتحام المضيق بين القارتين وغزو الاندلس ثم الاندفاع الى الشمال حتى فرنسا والوصول الى ليون وطولون ثم غزو صقلية وسردينيه وشواطىء ايطاليا من طريق آخر فقد كان هدف أكثر هذه الحملات الوصول الى عاصمة بيزنطة . وسنتناول هذا المشروع الجرىء بالتفصيل فى مكانه من هذا الكتاب انشاء الله

## آخر الصحابة

كان عبد الله بن سعد بن ابى السرح واليا على مصر. وهو
الذى حصل من امير المؤمنين عثمان على اذن بفتح تونس ،
وقد لقى البربر من جيش مصر ، ومن مدد الصحابة
الذى جاءهم جهدا بالغا ، وذاقوا هزيمة مرة . وبعد أن
قتل ملكهم جرجير ، تابع المسلمون الاغارة على الاطراف
المجاورة ، ورأى زعماء الفرنجة والبربر أن يعقدوا مع والى
مصر صلحا ، يوقف هذه الغارات المتصلة . وقد طلبوا من
ابن ابى السرح أن يشترى رجوع العرب عن بلادهم بما
يريد من مال ، فطلب منهم ثلاثمئة قنطار من الذهب (١)
وأن يختار لهم أميرهم من بينهم ، فأقروا هذا الطلب
وجمعوا له الاموال فأخذها ، وعين لهم حاكمهم فقبلوه
وعاد الى مصر مع الجيش بعد ان مكث فى هذا الغزو

١ الاستقصا ـ ص ٣٦

ثلاثة اشهر (٢)

وعلى الرغم من أن جيوش عمر بن الخطاب سحقت قوة هرقل فى المشرق ـ الشام وفلسطين ومصر ـ الا أن بيزنطة كانت تسيطر على قسم كبير من حوض البحر المتوسط وكانت هذه المناطق الافريقيـة التى يغير عليها المسلمون تحت سلطانها .

وما بلغ الامبراطور نبأ هذا الصلح الذى عقده البربر والفرنجة مع المسلمين حتى اوفد جيشا على رأسه أحد أعوانه المخلصين من رجال الدين ، يعرف فى كتب التاريخ المغربى « بالبطريق » ..

نزل البطريق قرطاجنة . وازال الحاكم الذى ولاه ابن ابى السرح عن مكانه ، فهرب الى المشرق يلتمس النجدة وأخذ هـذا البيزنطى الجديد ينظم الامـر فى مملـكة « جرجير » على أنها ولاية من ولايات الاغريق ..

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ص ٢٧٠

اسرع الحاكم المطرود الى المشرق ، فاذا باحداث جسام تشغل المسلمين فى اقطارهم جميعا . فقد قتل عثمان الخليفة الراشد ، وتولى من بعده على بن ابى طالب ، وبدأ معاوية بن ابى سفيان بشاقه ، ويرفع عليه من مقره فى الشام راية العصيان . .

انفقت الامة الاسلامية خمسة أعوام وهى مشغولة بفتنة وقتل عثمان ، وبالنزاع بين الحجاز والعراق وبين الشام. ولم يجد القادم المغربى فى هذا الضجيج القائم بين صحابة محمد عليه السلام ، أذنا تسمع ولا افهاما تعى . فأقام الرجل على مضض ينتظر الوقت الذى يستقر فيه الامر لاحد الحزبين المتخاصمين . .

وانتهت الحروب والفتن الى ما نعرف جميعا من غلبة دمشق وصاحبها ، واتخاذها قاعدة الامبراطورية الاسلامية ، وتنصيب معاوية بن ابى سفيان نفسه خليفة

لمحمد عليه السلام ، وملكا للمسلمين اجمعين. فهرول حاكم افريقية الطريد إلى دمشق ، ولقى معاوية ، ووجد منه اهتماما بأحداث ذلك الوجه من الارض ، ولما بدل (البطريق) البيزنطى فيه وغير . .

ونظر معاوية حوله ، فيمن يختار من الرجال لازالة نفوذ قيصر عن تونس ، فوجد شخصا سبق لنا ذكره هو معاوية بن حديج الذى قدم على عمر بن الخطاب بنبأ فتح الاسكندرية ، وكان من جند الفتح الافريقى الظاهرين .

اختار الخليفة هذا القائد ، وحشد معه عشرة آلاف مقاتل ، وسيره إلى أفريقية بصحبة الحاكم البربرى . . وما أن وصل الجيش إلى الاسكندرية ، حتى كانت علة الكبر وعلة المرض قد انتهت بهذا المستغيث الذى طال عليه الامد ، إلى ماينتهى اليه كل حى ، وهو الموت . فدفن فى ارض غير ارضه ، وهى الاسكندرية ، وسار معاوية بن حديج مجتازا طرابلس ، حتى وصل إلى تونس

واستمد لحرب البطريق » . .

وكان الحاكم البيزنطى على علم بأنباء هذه الحملة ، فحشد لقائها ثلاثين الف مقاتل جاءته مددا فى البحر من قبل قيصر ، واستنصر أهل المدائن والقرى ، ولكنه لم يجد منهم نصيرا . . فقد كان وصول المسلمين إلى بلادهم سببا فى معرفة قليل منهم بدين الاسلام فلما وازنوا بينه وبين نصرانية قيصر ، اختاروا الاول على الثانى ، وخصوصا ان انباء من الشرق كانت تأتيهم مع التجار والزوار بهذا العدل الذى يعم ارجاء الاقطار الاسلامية، وهذه الرحمة التى أخذ بها المسلمون أهل الارض المنتزعة من املاك قيصر مثل مصر وفلسطين والشام فكان أقل البربر يقبلون على الاسلام ، واكثرهم ينصرفون عنه كما انصرفوا عن المسيحية محتفظين بوثنيتهم القديمة

فقد البطريق حرارة اهل البلاد فى مؤازرته ، ولم يغنه جمعه الكثير عن نفسه شيئا . فقد كان جند المسلمين

قربى عهد بفتوح عمر بن الخطاب ، بل بصحبة نبي عمر وجميع المسلمين .

وقعت الواقعة ، واندحر اتباع قيصر ، وانتصرت جند محمد ، وعادت تونس مرة اخرى الى الاسلام بعد أن تحطمت مقاومة البيزنطيين . وفكر معاوية بن حديج في امر هذا المدد الكثيف الذى اقبل من بيزنطه لعون «البطريق» وكاد يكون خطرا داهما عليه، ورأى ان يحتاط لهذا الامر ، فيستولى في البحر على اهم الجزر التى تقلع منها اساطيل قيصر او تستريح اليها وتمتار . . وكانت جزيرة صقلية اقرب هذه الجزر إلى تونس فأعد اسطولا ضخما من مئتى سفينة ، وزوده بالرجال والسلاح واقلع الاسطول حتى صار فى صقلية، وهناك نزل المسلمون وحاربوا حرب بطولة . وكانت هذه الحملة الاولى التى سيرت إلى صقلية ، وقد امكن ترسم هذا الطريق بعد قليل وفى دولة الاغالبة بصفة خاصة ، للاغارة على شواطىء

ايطاليا ، وانفاذ الاسلام فى بعض مناطقها ..

وكما كان غزو صقلية خطة حربية تمنع اتصال بيزنطة بهذا القسم من افريقية ، كان كذلك حلقة فى سلسلة التطويق التى أريد بها عزل بيزنطة عن جميع أملاكها ثم الانحدار اليها من كل وجه ، واخضاعها لحكم الاسلام . . . وربما كانت أبصار المسلمين ترنو كذلك إلى روما حيث يستقر قطب المسيحية الدينى ، فليس هناك ما يمنع أن يكون لدى هذه الجيوش الغازية أربا عنده :

« كان قواد الخلافة مضطرين إلى أن يخوضوا معامع كثيرة ، ويقاتلوا مستبسلين قبل أن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم فى الشاطىء الشمالى لافريقية . ولم يكن حربهم قاصرا على مكافحة الجيوش المسيحية المقيمة على الشواطىء ، ولكنهم كانوا مضطرين كذلك إلى صد البربر (المراكشيين) الذين يقطنون داخل البلاد . وأكثر من هذا وذاك ، فقد أخذت أوربا تشعر بالفزع من هذا الخطر الداهم الذى

يزحف نحوهم رويدارويدا . ولذا أسرعت جنود الرومان من القسطنطينية ، وجيوش القوط من ايطاليا . وعبروا البحر على عجل لتقديم العون للمدينة القديمة « قرطاجنه » ولكن لم يجد كل هذا شيئا . فقدسقطت قرطاجنة ، ودكت معالمها تحت مطارق الفاتحين الاقوياء عام ٦٩٨ م ... » (١)

وبعد هذا الفتح نظر الخليفة معاوية فى أمر أفريقية ، فرأى من سداد الرأى ألا تظل هذه المناطق المضافة حديثا إلى رقعة الارض الاسلامية تابعة لحاكم مصر . . حقيقة كانت مصر هى عماد الغزو ، وصاحبة الفضل فى الفتح ، ولكن الشقة الآن بعدت بين الفسطاط ، وبين القيروان ، ومن الخير كل الخير أن يكون حاكم مصر غير حاكم افريقية .. وعاد معاوية بن حديج من المشرق ؛ « وكان إذا قدم على الخليفة زينت له الطرق بقباب الريحان تعظيما لشأنه » (٢)

(1) Concise History of the World by Sir Marriot P 216

٢ـ النجوم الزاهرة

وقرر الخليفة ان يختار من قواد المسلمين القدماء فى افريقية . شخصا بصيرا حازما فلا فاستشار عمرو بن العاص ، فلم يجد عنده اكفأ ولا انصح من عقبة بن نافع الفهرى الذى كان اكبر عون لعمرو بن العاص فى فتح طرابلس ، والذى تولى منذ ذلك الوقت حكم برقة ، وغيرها من افريقية ، وسلخ حتى الآن اكثر من عشرين سنة وهو مقيم بهذه الاصقاع .

ومعاوية بن ابى سفيان خير من يعرف الرجال ويزن مزاياهم . وكان اختياره هذا آية فى التوفيق وسداد الرأى فقد اتيح لعقبة بن نافع ، وهو أول حاكم مستقل عن مصر فى حكم افريقية أن يكون شخصيـة من ألمع شخصيات التاريخ الاسلامى . وحسبه أنه كان صحابيا بالمولد ، وأنه عميق الفقه بالاسلام ، كثير التقوى والورع . لم يستخفـه جاه الحـكم ، ولا مغانم الفتح كما استخفت غيره من الفاتحين حتى لتروى الاقاصيص عن تقواه وورعه . ونحن لا نريد

أن نصوره «رفاعيا» كما تصوره بعض كتب القدماء ؛ فتجعل الثعابين ودواب الارض وهوامها تسمع له وتطيع من ذلك ماذكر عنه ان أهل افريقية فى مدة حكمه «انفقوا اربعين سنة لو التمست حية او عقرب بألف دينار ما وجدت !! . » . أقول لا نريد ان نجعل منه صاحب سحر وحجابة ، ولكنه صاحب فضيلة وبصيرة وايمان صادق .

ماذا صنع هذا الرجل ـ عقبة بن نافع ـ الذى ذكرنا من صفته ماذكرناه ؟!

يقول السلاوى فى كتاب الاستقصا : «كان عمرو بن العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هذا ، وهو ابن خالته ، على افريقية ، فانتهى إلى لواته ومزاته ، فأطاعوا ثم كفروا. فغزاهم وقتل وسبى ثم افتتح سنة اثنين واربعين غدامس من تخوم السودان ، وفى السنة التى بعدها افتتح ودان وكورا من كور السودان وأثخن فى تلك النواحى وكان له فيها جهاد وفتوح ، فظهر غناؤه وعرفت نجدته

وكفايته . فلما كان سنة خمسين ولاه معاوية رضى الله عنه على افريقية استقلالا ، وبعث معه عشرة آلاف فارس ، فدخل عقبة افريقية بعد رجوع معاوية بن حديج عنها وانضاف اليه مسلمو البربر ـ فكثر جمعه ـ ووضع السيف في أهلها لانهم كانوا اذا جاءت عساكر المسلمين اسلموا . فاذا رجعوا عنها ارتدوا . . »

ورأى عقبة لدرء هذا الخطر الدائم من جند البربر أهل الصحراء والجبال ، وذوى القوة والبأس ،ان يقيم في تونس اقامة تعمير ، لا اقامة ارتحال . وقرران يبنى مدينة محصنة تكون نقطة ارتكاز في الهجوم والدفاع

ولم يشأ أن يكون بناء مدينته قريبا من الساحل ، وإلا لاختار مدينة تونس ، حتى لا يفاجأ بغارات الروم البحرية .. فانحدر إلى الجنوب من تونس ، وبات في واد يسمى وادى القيروان ، فلما أصبح وقف على رأس الوادى فاعجبه مكانه ، وإن كان قد أهمه كثرة الوحوش والهوام

فيه ، وأمر الجيش بمطاردتها وتطهير السكان منها ، ولما فرغوا من اعداد بقعة الارض ، شرع فى بناء المسجد على عادة المسلمين فى تخطيط المدائن الجديدة . قال ابن خلدون « احتط عقبة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكانت دورها ثلاثه آلاف باع وست مئة باع : وكمل بناؤها فى خمس سنين »

ومن هذه القاعدة الجديدة ، أخذ عقبة ينظم شؤونه ، ويبعث بعوثه لتمام الاسلام ، وهداية البربر إلى سبيله .

ولـكن حدث فى المشرق تعديل ادارى اوقف هذا التقدم إلى حين ، إذ عدل معاوية عن فكرة استقلال المغرب عن مصر ، فقد ولى حكم مصر مسلمة بن مخلد ، وجعل له حكم المغرب — مع الصلاة والخراج — واستمرت ولاية مسلمة هذا خمس عشرة سنة . وكان لمسلمة مولى اثير لديه اسمه ابو المهاجر ، فأرسله إلى افريقية واليا عليها وعزل عقبة بن نافع ! !

وكان هذا الحادث مفاجاة غير سارة للقائد القديم عقبة بن نافع ، وزاد فى كربه أن ابا المهاجر اساء اليه ، واستخف به ، ولم يحفظ له مكانه ، ولم يرع له سابق جهاده فرحل عقبة الى المشرق غاضبا ليلقى معاوية بن ابى سفيان ويبثه شكواه . . ومما زاد فى احزان عقبة ان هـذا الوالى الجديد زيادة فى التنكيل به أخلى مدينة القيروان واتخـذ له مدينة جديدة حتى لا تكون علما على فضل سلفه . .

وانتهز البربر فرصة هذا التبديل ، فجمعوا جموعهم تحت امرة قائد باسل من قوادهم كان نصرانيـا اسمه « كسيلة » ، وزحف لمهاجمة مدائن المسلمين وتخليص بلاده من حكم العرب . وكان ابو المهاجر فطنا حذرا ، فتقـدم إلى تلمسان وعبأ جيشه ، وقابل كسيلة ، وتمكن من هزيمته وأسره ، فأسرع زعيم البربر إلى التظاهر باعتناق الاسلام حتى ينجو من الهلاك . فأبقاه القائد الاسلامى فى معسكره وقبل اسلامه .

اقام عقبة بن نافع فى المشرق زمنا غير قليل ، وكان معاوية بن ابى سفيان مشغولا باثبات ولاية العهد لابنه يزيد . ووافت معاوية منيته ، إلا أنه كان قد وعد عقبة باعادته إلى عمله ، فنفذ يزيد هذا الوعد ورد عقبة الى افريقية واليا ، مستقلا كما كان فى أول أمره .

واستبقى عقبة ابا المهاجر ـ سلفه ـ فى معسكره حتى لا يسرع إلى المشرق ويدس له عند الخليفة ، ثم اعاد العاصمة إلى القيروان كما كانت ، ونظر فى هذه الاغارات المتتالية من البربر ، ورأى أن يضع لها حدا فاصلا بأن يجتاح بقية الشمال الافريقى ، ويطأ بخيله بلاد البربر جميعا . .

جمع عقبة جيوشه ، وقرر البدء فى الجهاد حتى تدخل افريقية كلها تحت راية الاسلام ، واختار من رجاله شخصا فذا فى فطنته هو زهير بن قيس ليكون خليفته فى القيروان ، ويواصله بالامداد كلما احتاج اليها ، وسار على

بركة الله ، وفى ركابه كسيلة أسير البربر ، وابو المهاجر غريمه القديم

وكان التوفيق من نصيب عقبة فى غزوه الجديد ، فاجتاح ما بقى من شمال الاطلس ، ونازل قبائل البربر فى طريقه ، وانزلها على حكم الاسلام ، وظل مستمرا فى زحفه لا يتلفت الى وراء ولا يفكر فى عودة حتى وصل الى طنجة . . .

وكان حاكم طنجة وقتها الكونت جوليان (Count Julian) ومن حسن الحظ أن مؤرخى العرب القدماء كانوا ينطقون اسمه نطقا صحيحا فيقولون عنه يليان وقد كان لهذا الرجل دخل كبير جدا فى فتح الاندلس فيما بعد ، وسيرد اسمه كثيرا ..

كان الكونت يليان فطنا ، فلم يشأ أن يعاند هذه القوة الطاغية الزاحفة ، وقرر أن يتقدم مع عقبة صلحا على

أن يؤدى له جزية معلومة ، وأظهر النصح للمسلمين والطاعة لهم . .

وفى طنجة وقف عقبة موقفا خطيرا فى تاريخه وتاريخ الاسلام . فقد شاهد جبال اسبانيا تتراءى له عن بعد ، واخذ يفكر فى اقتحام المضيق ، وفتح «الجزيرة الاسبانية» ويشاور من حوله من رجاله . . وكان كلهم راغبا فى استمرار الجهاد ، فقد ذاقوا حلاوته ، ونسوا به هذه الخلافات والمحن التى كانت تلم بهم كلما استقروا فى وجه من وجوه الارض . .

الا أن الكونت يليان نصح لعقبة بألا يغامر هذه المغامرة حتى يأمن الأرض من ورائه ، فلاتزال فى أفريقيه قوى بربرية لم تخضع له ، وهى كثيرة الحرص على حريتها ، كثيرة الشغف بالغارة والنهب ، فاذا هو نزح الى أوروبا من أفريقيه فقد تقطع عليه طريق العودة وطريق الامداد وهذا الرأى ظاهر الفطنة والسداد . ولا يهمنا كثيرا

أن نعلم إذا كان صادرا من هذا الأمير القوطى عن حرص على مصلحة المسلمين أو حرص على مصلحة قومه القوط الغربيين من حكام اسبانيا .. فقد كان فى الأخذ به تجنب خطر واضح . . .

سأل عقبة عن أماكن هؤلاء البربر ، ومكان اقامتهم ، فدله يليان على أرضهم ، وهى مكان مراكش اليوم ، فانحدر عليهم من طنجة ، ودخل بلاد السوس ، واقتحم عاصمتهم (قصر فرعوز) وظل يتنقل فى بلادهم حتى وصل الى صحراء لمتونة ، ثم انثنى غربا حتى وصل إلى ساحل المحيط الاطلنطى .. هـذا المحيط الممتد الفسيح ، الذى لم تكن لعقبة فيه بغية ، وكان أقصى الأرض غربا ...

وقف عقبة على شاطىء المحيط ممتطيا فرسه ، وتنفس نفسا طويلا ، عب فيه هواء هذا الماء الملح ، وأخذ يحدق فى هذا الخلق العظيم من الماء ، ثم تلفت وراءه ، فاذا هو يرى جيشه ، ينظر إلى صفحة المحيط التى تغرق السماء فى اطرافها

البعيدة ، لا يتكلم منهم أحد ، ولعلهم تذكروا وهم فى هذا المكان تلك البقعة التى انحدروا منها صبيانا ، وسلخوا شبابهم فى هذه القارة يجاهدون ، وهذه هى الكهولة تدركهم وقد وصلوا الى أقصى الغرب من حدود القارة التى لا حدود بعدها . .

وقف عقبة مع صحبه ساعة ينظرون ويتأملون ، ثم استدار اليهم وقال لهم « ارفعوا ايديكم . . ! ! فعلوا . . وقال : اللهم انى لم اخرج بطرا ، ولا أشرا ، وانك لتعلم انما نطلب السبب الذى طلبه عبدك ذو القرنين . وهو ان تعبد ولا يشرك بك شىء . اللهم انا معاندون لدين الكفر ومدافعون عن دين الاسلام . فكن لنا ، ولا تكن علينا ياذا الجلال والاكرام . »

ويطيب لنا أن نقف عند هذه الكلمة الخالدة التى ألقاها عقبة على جيشه الفاتح المظفر ، والتى اكد فيها أن رسالة قواد الاسلام ، انما تشبه رسالة الاسكندر المقدونى

الذى أراد أن يجمع الدنيا كلها تحت علم واحد ، حتى يسودها السلام والأمن ولا ينابذ بعضها بعضا بالخصومة والعداوة المستمرة(١) ؟!

أن يعبد الله لا يشرك به شيء . . أن ينشر دين التوحيد ويسود ، وعندها يسود السلام ، ويطمئن الناس وتزول بينهم الاحن والفتن .. فلقد كان اختلاف العقائد ولا يزال سببا فى اختلاف العقليات وطرائق النظر الى الأحياء والاشياء . وكثيرا ما تطور هذا الخلاف فأشعل الحروب ، وأفنى الشعوب وصبغ وجه التاريخ باللون الأحمر .. لون الدم القانى

كان عقبة اذن يفهم فى رحلته هذه الكبرى مع جيش التوحيد أنه يؤدى رسالة ، وأنه لا يغير على القبائل والأمم لانه طالب جاه ، أو مغنم .. وانما كان يطلب ، أن

---

١ )راجع تفسير ابن كثير عن ذى القرنين الذى قال عنه فى احدى رواياته انه بانى الاسكندرية وفاتح الاقطار — فى شرح سورة الكهف

« يعبد الله لا يشرك به شيء ».. ولهذا فهو يدعو ربه ذا الجلال والاكرام أن يكون معه لا عليه .

لقد كان دعاء عقبة صلاة .. وكان دعاءً مستجابا . فقد شاء الله أن يثمر جهاد هذا المجاهد الأول ، وأن يستقر الاسلام بعد إحن وتضحيات فى هذه الارجاء ، فيكون دينها منذ القرن الأول من الزمان لانتشار الاسلام، وسيظل دينها حتى قيام الساعة .

يقول مريوط فى مختصر تاريخه « وهكذا أكرهت هذه الجيوش الشاطىء الافريقى كله من حدود النيل الى المحيط الاطلنطى على أن تدين بطاعة الدولة للخلافة. واذا استثنينا أوروبا فان جميع الممالك ذات الشواطىء أصبحت تابعة لهذه الدولة الجديدة فى آسيا . ومع أنه لم يمض على وفاة النبى محمد أكثر من سبعين سنة ، الا أن علم الاسلام ارتفع عاليا خفاقا خلال آسيا حتى بلاد الاغريق من ناحية ، ومن الناحية الأخرى ظلل أفريقيا حتى جبل طارق . وعند

هذا المضيق أقام العرب في ربوع الصحراء يلقون نظرات طويلة على شريط الماء الممتد أمامهم ، والذى يفصل عنهم القارة الوحيدة التى لم تدن لهم بعد .. وهى أوروبا »

* * *

عاد عقبة من غزوه يقصد عاصمته بعد أن طوف مع جيشه فى الارض هذه الطواف الطويل ، وكانت تتصدى له فى عودته بعض جموع البربر فكان يهزمها ، ويقر الامن فى ربوعها .

ويذكر القراء اننا ذكرنا أن من بين من استصحبهم عقبة فى زحفه « كسيلة » كبير البربر ، وأبا المهاجر الحاكم السابق لافريقية . يقول المؤرخون ان عقبة أساء معاملة كسيلة فى عودته ، وكلفه مرة بأن يسلخ شاة مذبوحة ، فدفعها إلى غلمانه ، إلا أن عقبة أبى عليه إلا أن يتم العمل بنفسه فقام كسيلة مغضبا ، ونفذ ماطلب منه ، وكان كلما دس يده فى الشاة مسح بلحيته ، وعلم العرب أن هذه إشارة إلى

الحقد وطلب الانتقام مصطلح عليها بين البربر . وبلغ أبا المهاجر فى معتقله ما حل بكسيلة وما دلت عليه اشارته . فبعث إلى عقبة ينهاه ويقول له كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب ، وأنت تعمد الى رجل جبار فى قومه ، وبدار عزه ، حديث عهد بالشرك فتستفسده ! وأشار عليه بأن يتوثق منه ، وخوفه من عاقبة أمره . وسواء صحت قصة الشاه أو لم تصح(١) فنحن نفهم منها أن زعيم البربر لم يكن مخلصا فى طاعته وانه كان يبيت شرا للاسلام ..

ولما اقترب عقبة من القيروان أشار الى الجيش بأن يسبقه الى العاصمة ، وتمهل هو فى الدخول إلى مدينته وانتهز كسيلة هذه الفرصة ـ فرصة انفصال الجيش وبقاء عقبة مع نفر من كبار أعوانه ، وراسل أتباعه من البربر

١ أشار موير فى تاريخ الخلافة الى هذه القصة

وأعطاهم تعليماته وما لبث عقبة ومن معه ـ وكان عددهم نحو ثلاث مئة أن وجدوا أنفسهم محاصرين بجموع من البربر في مكان بالجزائر قرب بسكره يسمى بتهودة . وأسرع عقبة فاطلق أبا المهاجر من أسره . وطلب منه أن ينجو سريعا ويذهب الى القيروان لكي يدبر أمرها مع قيس ابن زهير. فهم هنا هالكون لا محالة ، ولا يؤمن الحال أن يزحف البربر بعد قتلهم الى العاصمة ويأخذوها على غفلة من أهلها . ولكنه أبى النجاة وأصر على الاستشهاد ..

يروى كتاب النجوم الزاهرة هذه القصة الفريدة فيقول

« كان أبو المهاجر موثقا في الحديد مع عقبة . فزحف عنه عقبة الى كسيلة ، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ويتعب عقبة ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل قول الشاعر (١)

---

٢ هو ابو محجن الثقفي الفارس المشهور في فتوح العراق. وقد أورد ابن الاثير هذه الرواية أيضا

تمنى حزنا أن تطعن الخيل بالقنا

وأترك مشدودا على وثاقيا

اذا قمت عنانى الحديد وأغلقت

مصارع من دونى تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه، وقال له . الحق بالمسلمين فقم بأمرهم وانا اغتنم الشهادة . فلم يفعل وقال : وأنا أيضا أريد الشهادة . فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا الى البربر وقاتلوهم حتى قتل المسلمون جميعهم . ولم يفلت منهم أحد . وأسر محمد بن أوس الانصارى فى نفر يسير

اذن قتل عقبة، وقتل معه غريمه القديم فى ساحه الاستشهاد . واذن فقد تعانق الاثنان فى الثرى مع بقية الصحابة والتابعين، والتصقت جسومهم بالارض التى طالما داستها أقدامهم، وسمعت فيها صليل سيوفهم، وتكبير حناجرهم، وصهيل خيولهم ...

ما أروع هذا الموقف وما أجله .. وما أبسل هذه الحفنة من المجاهدين الصادقين ، وهم يعلمون أنهم ملاقو ربهم عما قليل ، فلا يهن لهم ساعد ، ولا تضعف منهم نفس بل ان أحدهم ليفكر في أمر الدولة ، ويدفع غريمه الى أن يفر ، ويقوم مقامه في حكم المسلمين . ولكن صاحبه يأبى ولح ، ويرى ما عند الله خير وأبقى ، فلطعنة يصيب بها عدوه ، وأخرى تصيبه أحب اليه من كل شيء . لقد أقبلوا جميعا على الموت ، وهتاف كل واحد منهم . عجلت اليك رب لترضى ! !

مات عقبة بن نافع في سنة ٦٢ ، وكان قد تولى أول عمل في افريقيه ، وهو حكم برقة في سنة ٢١ فيكون قد أنفق في الجهاد في سبيل الله أربعين سنة وسنة ، لم يكل فيها ولم يمل ، حتى وافته منيته على هذا النحو الفريد من البطولة الخالدة على وجه الزمن

أربعون سنة في الجهاد المستمر . . ما أطول هـذا

الأمد ، وما أحفله بالآيات البينات ... وأنه ليكفى أن نتصور أن أبطال المشرق من أمثال خالد بن الوليد والمثنى وعمرو بن العاص وسعد وغيرهم إنما كانوا يحاربون فى أرض قريبة من دار الخلافة ، وكان لهم من خلفاء رسول الله خير ناصح وعون . . يتلقون أوامرهم ، ويتلقون امدادهم ، ومارزقهم ربهم من شجاعة وبصيرة . ويسندون ظهورهم بالعرب جميعا ... أما هؤلاء فى أقصى الغرب الافريقى .. أما عقبة بن نافع وصحبه ، فما أبعدهم عن دار الخلافة ومستقر السلطان ، ان الشقة بينهم وبين عواصم الخلافة بعيدة . وانهم ليضربون فى الارض ، ويسيرون فى مناكبها فاتحين غازين يهديهم إيمانهم بالله ، وهل كان الواحد منهم يطمع الا فى إحدى الحسنيين : أما النصر ورفع لواء الاسلام . واما الاستشهاد والدخول فى رحمة الله ...

قال ابن خلدون : « واجداث الصحابة رضى الله عنهم . أولئك الشهداء ـ أعنى عقبة بن نافع وأصحابه

بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد (عهدتاريخه) وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت . واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو فى عداد المزارات ومظان البركات . بل هو أشرف مزور من الاجداث فى بقاع الأرض لما توفر فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ، ولا نصيفه ..»

واذن فقد ذهب آخر الصحابة جملة لا مفرقين ، وبقى على جندهم وأعوانهم أن يستأنفوا الجهد من جديد.. فماذا هم فاعلون ؟!

* * *

وكان مصرع عقبة وصحبه نكبة على الفتح الافريقى تتالت بعده نكبات فادحات . فقد قوى ساعد البربر ، وتجوا كبيرهم كسيلة ، وزحف الى القيروان فى وقت فقد المسلمون أميرهم ـ بل امراءهم وابطالهم ، ودب العصيان

فى الجيش ، ولم يذعن بالطاعة لخليفة عقبة فى قرطاجنة ـ زهير بن قيس ..

عم الاضطراب القيروان عندما جاءها نبأ زحف البربر ، واسرع زهير إلى المسجد الاكبر. ودعا فيه الناس فاجتمعوا . فقال لهم : يا معشر المسلمين . . ان اصحابكم قد دخلوا الجنة . فاسلكوا سبيلهم أو يفتح الله عليكم

ولكن الجنة لم تكن لهؤلاء القاعدين مطمعا سريعا . يخفون اليه كما خف اليه عقبة ومن معه . بل نادى فى الجند مناد ألا طاقة لكم بما دهمكم من أمر البربر وانتم قلة لن يغنى عنكم أحد شيئا .. ثم أذن فيهم بالرحيل . فاستجابوا خفافا وثقالا . ولم يمض إلا ايسر الوقت . حتى وجد زهير بن قيس البلوى نفسه وحيدا فى القيروان لا يحيطه إلا نفر من آل بيته ..

ولم ير زهير بدا من الرحيل بدوره على أحسن شروط يمكن أن يحصل عليها ، فمضت الرسل بينه وبين

كسيلة . واتفقا على أن يخلى أولهما القيروان . ليتسلمها الامير البربرى ، على ألا يؤذى مسلما ، وأن يؤمن الأسر المسلمة المقيمة بالمدينة على دينهم ومعاشهم (١) . وقبل كسيلة هذا الشرط ، وارتد زهير عن تونس كلها إلى برقة ، اول قواعد الاسلام فى افريقية بعد مصر

— ٥ —

## أيام عبد الملك وحديث الكاهنة

تلفت زهير فى مقامه ببرقة إلى المشرق حيث تستقر خلافة المسلمين عسى أن يأتيه من عندها مدد ، ولكن المشرق كان عنه فى شغل أى شغل . .

لقد مات معاوية رأس الأمويين ، وخليفتهم القادر ، وتولى من بعده ابنه يزيد . فثارت فتنة العلويين ، وذبح الحسين فى كربلاء . وعم المسلمين قلق كبير . . وحدثت

---

(1) Muir P 341

فى عهده وقعة الحرة التى حوصرت فيها مدينة رسول الله وضربت ونهبت ثلاثة أيام كاملة . وكان عبد الله بن الزبير الذى ذكرنا بلاءه السابق فى حروب افريقيــة طامعا فى الخلافة . فاعلن نفسه خليفة فى مكة . وسارت اليه جيوش يزيد تحاصره وتقاتله . وانقضى حكم يزيد وابن الزبير لا يزال يقيم الحجاز ويقعده . والعراق ساخط ثائر لمصرع الحسين . والشام نفسه لا يقر له قرار . وتولى الخلافة مروان بن الحكم . وما أن انتهى من فتح الشام حتى وافته منيته وتولى من بعده عبد الملك بن مروان . الذى أضيفت الى اعبائه فى آسيا وثوراتها هذا العبء الجديد الثقيل . وهو انتقاض البربر . وانسحاب المسلمين من الشمال الافريقى كلـه . وبقاؤهم فى برقة ينتظرون العون . وعين لهم صوب المشرق تترقب . وعين لهم صوب المغرب تحذر وتتوجس ..

وكان عبد الملك بن مروان كفءا جديرا بهذه المهام

التى واجهته . فان له من حزم شيخ الامويين معاوية الشيء الكثير .. بدأ فاختار لولاية البلدان وقيادة الجيوش اقدر رجال عصره . فاستخدم الحجاج وعبد الله بن زياد والمهلب بن أبي صفرة . وما لبثت الامور بعد حروب وفتن قاسية أن استقرت فى المشرق من جديد . وعادت الحياة الى هدوء نسبي هو الذى عرفه المسلمون أيام معاوية ..

وبقى أمر افريقية . وما كان عبد الملك ليهملها . حقيقة انقضى منذ مات عقبة بن نافع وانسحب المسلمون من القيروان سبع سنين ـ من عام ٦٢ الى عام ٧٩ هـ . إلا ان البربر لم يكونوا طامعين فى اكثر من الاستقلال ببلادهم يعاونهم الأغريق ، والامداد التى كانت ترد عليهم من بزنطة ، واخلاط القوط الهابطة عليهم من ايطاليا واسبانيا ولو أنهم انتهزوا فرصة هذه الفتن الحمراء فى قاعدة الخلافة وماجاورها من امصار ، وزحفوا صوب طرابلس ومصر لما وجدوا مقاومة تذكر . ومن اين تأتى المقاومة ورأس

الدولة نفسها مصاب بصدع شديد !

كاتب عبدالملك بن مروان زهير بن قيس يسأله عن حقيقة الحال فى افريقية ، فأنبأه وطلب منه امدادا وأموالا ، تكفى لتحطيم جيوش كسيلة البربرى . ولبى الخليفة ماطلب منه هذا الرجل المخلص ، وسير له حملة قوية معدة احسن اعداد قادها زهير ، وزحف صوب القيروان ، فلقيه كسيلة غير بعيد من العاصمة ، ودارت بين الفريقين معركة حامية كتب النصر فيها لزهير ، وقتل زعيم البربر ، وكبار المقاتلين منهم ، وفنى الكثير من فرسانهم ورجالهم ، وتفرقت جموعهم فى كل وجه ، وعادت اعلام الخلافة ترفرف من جديد على القيروان وماجاورها من المدائن بعد غيبة طالت سبع سنين كاملة .

رأى زهير أنه ثأر لعقبة بقتل كسيلة وكان رجلا زاهدا تقيا ، فلم يشأ أن يقيم من نفسه حاكما على افريقية ، وآثر أن يترك مكانه خليفة له ، ويدع جيشه فى القيروان

ويعود هو الى برقة ، يقيم بها حتى اذا دعاه داعي الجهاد لبي طائعـا . .

ويظهر أن داعي الجهاد كان ينتظره فى هذه الرجعة فما أن وصل الى برقة ، وكان فى قلة من الاعوان ، حتى وجد بيزنطة قد سيرت أسطولا اغريقيا اغار على المدينـة وأسر عددا غير قليل من المسلمين .

وكان القتال عبثا ، فلم تكن مع زهير قوة يصد بها هذا الجمع الكثيف من جنـد قيصر . ولـكنه لم ينسحب كما انسحب من القيروان عقب مقتل عقبة ، وآثر ان يلحق بالشهداء الصالحين . فأوصى من ينجو من صحبه أن يسرع بانباء هذه الغارة إلى عبـد الملك بن مروان . وحزم أمره وألقى بنفسه فى اتون الروم ، يريد أن يستنقذ منهم اسرى المسلمين . ولـكن قوة الروم كانت اكبر من مقاومته فقتل . وجل من معه . ومن نجا سار مسرعا الى دمشق بانباء هذه الـكارثة الجديدة

لحق زهير بصاحبه عقبة فى موقف من مواقف البطولة الفريدة ، وهكذا أضيف الى قائمة الشهداء فى افريقية اسم لامع ، لرجل لامع ، عاش مجاهدا ، وقضى ساعات الحياة لم يكف عن النضال ، ولم تنصرف نفسه الى مطمع من مطامع الدنيا .

وهكذا كان شأن هؤلاء المجاهدين الأول . كانت استهانتهم بالحياة . وايمانهم بالله ، وزهدهم فى الدنيا . كانت هذه الصفات هى القواعد والاسس التى بنيت عليها أمبراطورية المسلمين ، وأحيطت فيما بعد بسياج من دمائهم وأشلائهم التى تناثرت فى كل بقعة من بقاع الأرض ولا هتاف للمستشهد الا الله أكبر . ولا نشيد له الا قوله :

عجلت اليك رب لترضى

...

حزن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان على مصرع

زهير . وزاد فى همه أن الانباء جاءته بحركة جديدة يقوم بها البربر . ولكنها غريبة كل الغرابة وذلك أنهم بعد مصرع كبيرهم كسيلة . اختاروا لقيادتهم سيدة جريئة شجاعة لم نعرف عنها أكثر مما ذكر مؤرخو العرب . وهو أن اسمها الكاهنة . « والكاهنة » فى الواقع ليس اسما ولكنه وصف المكان الزعامة الدينية الذى كانت تحتله هذه المرأة من نفوس البربر .

أقامت « الكاهنة » فى جبل اوراس . وبسطت سلطانها على قبائل البربر فى سفوح الاطلس وفيما وراء الاطلس من صحراء وانتشرت عنها أوهام غريبة وذبت بوجودها الحرارة الى نفوس البربر فنفضوا عنهم الدين الجديد وراحوا يعاودون حياتهم فى ظل المجوسية أو فى ظل نصرانية بيزنطة الرقيقة واقبلت جموع كثيرة من الاغريق ومن الرومان والقوط واحتلت قرطاجنة مدينة الشمال الافريقى العجيبة ، وراحوا يسرفون فى وصل هذه الحياة الجديدة ، بحياتهم القديمة قبل غزو العرب

ونظر أمير المؤمنين عبد الملك فى الوسيلة التى ينقذ بها الشمال الافريقى من هذه الثورات ولكن حروب ابن الزبير عاقته عن عمل شيء. فلما فرغ منها اختار من رجاله حسان بن النعمان الغسانى وأعد له جيشا ضخما وأمره بالمسير الى القيروان، وبعث له بالامداد، فصدع حسان بالأمر، وبلغت جملة جيشه أربعين ألف مقاتل. وهو أكبر جيش سير الى هذا الوجه من وجوه الأرض منذ كانت الفتوح. وكان مسير حسان سنة أربع وسبعين هجرية (١) وما أن بلغ القيروان، حتى اتخذها قاعدة أعماله الحربية، وراح يدرس الموقف بعناية

يقول السلاوى فى الاستقصا. « لما دخل القيروان سأل الافارقة عن أعظم ملوكهم. قالوا صاحب قرطاجنة وهى المدينة العظمى. قرينة روما وضرتها. واحدى

---

١ فى كتاب الاستقصا وفى الواقدى أن المسير كان سنة ٦٩

عجائب الدنيا . وكان بها يومئذ من جموع الفرنج أمم لا تحصى ولم يكن القواد السابقون قد اقتربوا من قرطاجنة رهبة لها واستعصا بالأمرها(٢)

وتهيأ حسان الاستيلاء على هذه العاصمة القديمة العريقة فزحف اليها وحاصرها وضيق عليها الخناق وزاد في صعوبة مهمته أن الاغريق كانوا يساعدون حاميتها بأسطولهم البحرى ولكن حسانا اشتد على هذه الحامية . واقتحم أسوار المدينة . فنجا عدد من الاغريق بالتجائهم الى الاسطول ووقع في يد حسان الثائرون من البربر ومن عجز عن اللحاق بالاسطول من أخلاط الاغريق والايطاليين وغيرهم فنكل بهم . وترك في المدينة حامية صغيرة ثم عاد الى القيروان . وقبل أن يصل الى العاصمة الاسلامية جاءته الانباء على عجل بان جموعا من بربر البادية احتلوا المدينة

---

٢ ابن الاثير فى حوادث سنة أربع وسبعين

وطردوا حاميتها فرجع مغيظا محنقا . وقد بيت فى نفسه أمرا خطيرا هو هدم قرطاجنة . وقد تم له ما أراد

يقول نفس المصدر : «افتتحها عنوة ، وأمر بتخريبها واعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر. ولم يبق بها الان الا آثار خفية تدل على ما كان بها من عجيب الصنعة واحكام العمل . وبانقاضها عمرت مدينة تونس كما فى القاموس » وهكذا طويت الى الأبد صفحة مدينة كانت محورا من محاور الصراع الهائل بين افريقية وأوربا (قرطاجنه وروما) كما انعقدت لها زعامة التجارة وسيادة البحار حينا من الدهر غير قليل (١) ، وأنجبت من أبطال القتال مالا تزال سيرهم غرة فى سير البطولة على مر الزمان.

ويظهر أن القائد المصرى حسان بن النعمان ، كان مضطرا الى أن يصنع بالمدينة القديمة هذا الصنيع . فقد كان موقعها على البحر ، وضخامة حصونها ومكانتها فى نفوس

---

١ راجع قصة الكفاح بين قرطاجنة وروما للاستاذ توفيق الطويل

الافريقيين والاغريق والرومان ، سببا فى اصابة الفتح الاسلامى لهـذه المناطق بنكسات عنيفة ، ردته على أعقابه أكثر من مرة حتى آوى الى برقة .. وعلى الرغم من هذه الضرورات الحربيـة ، فلايسعنا إلا أن نأسف على زوال هذه المدينة من صفحة العمران ، كما أسف مؤلف كتاب الاستقصا فى عبارته الساذجة البسيطة .

لم يقلل تدمير قرطاجنة من حدة البربر والاغريق فى الدفاع . فقد تجمعوا مرة أخرى على الشاطىء عند بنزرت وهيئوا جيشا ضخما ، تأهب للثأر من هذه الهزائم المتتالية . فسار حسان الى هذه القوة الجديدة ، والتقيا ، وكان النصر حليفه ، فتفرقت جموع الأعداء مرة أخرى بعـد أن أصابهم بهزيمة منكرة ...

وكان قد بلغه نبأ هذه « الـكاهنة » التى اجتمعت لها طاعة البربر ، والتى تألب على المسلمين الفتن والثورات ، فقرر أن يسير اليها فى معتصمها بالجبل ..

يروى ابن الأثير هذا السير بقوله :

« لما صالح الناس قال حسان : دلونى على أعظم من بقى من ملوك البربر . فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة . وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ، ولهذا سميت الكاهنة • وكانت بربرية وهى بجبل أوراس • وقد اجتمع حولها البربر بعد مقتل كسيلة • فسأل أهل افريقية عنها فعظموا محلها وقالوا له إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك • فسار اليها • فلما قاربها هدمت حصن « باغاية » ظنا منها أنه يريد الحصون • فلم يعرج حسان على ذلك ، وسار إليها • فالتقوا على نهر نينى ، واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير • وانهزم حسان وأسر جماعة كثيرة • أطلقتهم الكاهنة سوى خالد بن يزيد القيسى • وكان شريفا شجاعا فاتخذته ولداً • »

ولم تكن هذه الهزيمة فى الحسبان • فقد زلزلت نفوذ

الاسلام من الشمال الافريقي كله . وجرأت السكان على الانتقاض . كما قوي نفوذ الكاهنة وعظم شأنها إلى حد خطير . للمرة الأولى تهزم جيوش المسلمين مجتمعة على هذا النحو . وللمرة الأولى يقع في الأسر عدد كبير من المسلمين .. ولم ير حسان بدا من أن يتراجع إلى الوراء سريعا حتى لا يقطع عليه خط الرجعة . فأخلى القيروان نفسها . وانسحب الى برقة . وبذا انحسر الاسلام من جديد عن بلاد الأطلس كلها ..

ويظهر أن الكاهنة رأت في هذا النصر الذي نالته سببا في أن تستبد بأمور الناس . كما أن الفكرة التي أوحت لها بهدم أحد الحصون قبيل مسير حسان اليها ، ألحت عليها في أن تهدم المدائن والمباني جميعا . فهي في رأيها السبب في طمع هؤلاء الغزاة والنقط التي يدور عندها القتال فأصدرت أمرا بتخريب كل المدائن ، وهدم الحصون والمباني جميعا ، وقالت في تبرير عملها « يريد العرب البلاد

والذهب والفضة . ونحن أنما نريد المزارع والمراعى . ولا أرى إلا أن أخرب افريقية حتى ييأسوا منها » وأرسلت وحدات جيشها فى كل مكان ، فملوا المبانى هدما وتخريبا وازالوا عنها أهلها ، فأصيبت افريقية بنكبة افدح من نكبة هدم قرطاجنة . وأصاب الناس فزع شديد وحزن بالغ ، وعنوا ملك العرب ، الذين لا يبلغ بهم العسف ـ مهما كان شأنهم ـ ما يبلغ بهذه الحاكمة الطاغية

وكان حسان مقيما ببرقة ، وقد اشيد فيها ـ على عكس الكاهنة ـ الحصون المتينة ، واتخذها خط الدفاع الاول عن مصر حتى لا تغير عليها الكاهنة ، أو اى قائد من قواد الاغريق أو البربر فتهدد مصر بخطر عظيم . وقد عرفت هذه الحصون باسم منشئها وظلت بعده زمنا طويلا . وذكر ابن الاثير انها كانت باقية إلى أيامه

واخذ حسان فى مكانه الجديد يراقب الحوادث بعناية . وقد جاءته الانباء بما صنعت الكاهنة وبتذمر

البربر الشديد . كما أن هذا الأسير العربي الذي استبقته عندها كان يوافيه سرا بالانباء . ويظهر أنه حدثت وحشة وجفاء بين ابني الكاهنة وبينها . فقد طمعا في الملك دونها كما حرضهما هذا الاسير العربي على الانتقاض عليها . . .
وانتهز حسان الفرصة ، فزحف بجيش جديد على افريقية واجتاح المناطق في سهولة ، لأن أهلها كانوا راغبين عن حكم الكاهنة . بل زاد امره نجاحا أن انضم اليه ابناء الكاهنة . ومع هذا لم يفل من عزم هذه المرأة الغريبة ، فقد التقت بحسان وصمدت له في معركة مخيفة ، خيل للناس أن القيامة قد قامت فيها من هول القتل وعنف الصراع . وشاء الله في نهاية الأمر ألا يخذل حسان بن النعمان مرة أخرى ، فنصره على الكاهنة ، ولحقها بعض جنده فقتلها .

ورأى البربر بعد هذه الحروب الطويلة القاسية أن يهادنوا المسلمين وخصوصا أن محور حركتهم قد ذهبت ، فعرضوا الصلح على حسان ، فلم يقبل الصلح إلا اذا امده البربر من

مقاتلتهم باثنى عشر ألف رجل ، يضمهم إلى جيشه ، ويفقههم فى الاسلام ، ويسيروا مع المسلمين فى غزواتهم .. وقد قبل هذا الشرط . ورأى حسان من الفطنة أن يستعين بكبار البربر ، فاختار ابنى الكاهنة لقيادة هذه القوة الجديدة ، وعاملها معاملة طيبة ، وبدأ تألف قلوب القوم جميعا ، ودخل القيروان والناس جميعا تتنفس - مرة أخرى - نفس الراحة . .

وفى القيروان ، بدأ حسان يتخذ هذه العاصمة دار استقرار ، فأنشأ فيها الدواوين وأقام المبانى العامة ، وبدأ يحصل الضرائب ، وينفذ شريعة الاسلام فى تحصيل الجزية على الكتابيين من النصارى - وهم قليل من البربر وبقايا الاغريق والقوط والرومان .. وأخذ الاسلام يفشو فى قبائل البربر

ورأى عبد الملك بن مروان خليفة المسلمين ، أن اعظم خطر يسبب المتاعب فى أفريقية هو اسطول بيزنطة

الذي يحمل الامداد ، ويغير على الشواطىء ، فطلب من حسان أن ينشىء دار صناعة ( ترسانات سفن ) فى تونس ، وأن يهيء لها العمال لبناء أسطول اسلامى دائم ، وان تكون تونس كالاسكندرية، ثانية موانى الامبراطورية الاسلامية

وظل حسان مقيما بالقيروان ، يتابع هذه السياسة . . سياسة الهدوء والاستقرار ، وعاد الامن والهدوء الى نصابه فقد اختلف الرواة فى سنة خروجه من القيروان فذكرت روايات بين سنة سبع وسبعين وتسعة وثمانين ولم تعرف مدة ولاية حسان هذا على افريقية على وجه التحقيق ولكنه على كل حال مكث حتى انتهى عهد عبد الملك بن مروان ، وكانت وفاة عبد الملك سنة ٨٦ هـ

# البحر وراءكم...

« ان الله احلكم هذا المحل ليعز دينكم ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، ويذب بـــكم عن الحرمات ، ويزيد المــــال استفاضة ، والعد وقها . ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر . بحديث صادق، وكتاب ناطق . فقال: هو الذي ارسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون. ووعد المجاهدين في سبيله احسن الثواب ، واعظم الذخر عنده. فقال: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله . ثم اخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق فقال : لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ... »

من خطب الفتح أيام الوليد

- ١ -

## موسى وطارق

مات أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بعد أن حكم الامبراطورية الاسلامية ثلاثة عشر عاما وخمسة شهور . وبعد أن أدى أمانة الحكم على أكمل صورة . فما نامت له عين ، ولا فترت له همة ، ولا تردد فى رتق الفتوق التى تفتحت فى رقعة الدولة الاسلامية . فكانت جيوشه تطأ الارض فى الشام والحجاز والعراق وخراسان والشمال الافريقى كله .

ولما انقضت أيامه خلفه ابنه الوليد بن عبد الملك ، فوقف يرثى أباه بقوله :

« أيها الناس . انه لامقدم لما أخر الله . ولا مؤخر لما قدم الله . وقد كان من قضاء الله وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه ، الموت . وقد صار إلى منازل

الابرار ، ولى هذه الامة بالذى يحق عليه لله ، من الشدة على المريب ، واللين لاهل الحق والفضل ، وإقامة ما أقام الله من منار الاسلام وأعلامه ، من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على أعداء الله . فلم يكن عاجزا ولا مفرطا .

« أيها الناس : عليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة . فان الشيطان مع الفرد . أيها الناس : من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ( رأسه ) ومن سكت مات بدائه »

وقد ورث الوليد عن أبيه حزمه وعزمه ، كما ورث امبراطورية ذلل صعبها ، ونامت فتنها ، فكانت لديه فرصة التوسع فى الفتح ، مع التوسع فى التعمير والانشاء . فكان عهد الوليد بحق ، عهد إشراق وإنتاج فى كل ناحية من نواحى الحياة .

قدم عليه حسان بن النعمان والى أفريقية وهادم قرطاجنة بكثير من النفائس التى لم يشهد الشرق مثلها .

فسر بها الوليد سرورا كبيرا ، وأراده على أن يعود إلى عمله فاعتذر . فأشار الوليد على والى مصر أن يختار لافريقية — وكانت فى هذه الفترة تابعة لمصر — واليا من قبله هو موسى بن نصير .

فمن هو نصير هذا ، ومن هو موسى ابنه ؟ !

الاقوال مضطربة غاية الاضطراب عن أصل هذه الاسرة . ففى كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الاندلس (١) ولى الوليد ، وثغر افريقية ، أهم الثغور اليه . فدعى موسى ابن نصير مولى بنى أمية . وأصله من علوج أصابهم خالد ابن الوليد رحمه الله من عين التمر ، فادعوا أنهم رهن ، وأنهم من بكر بنى وائل . فصار نصير وصيفا لعبد العزيز ابن مروان ، فأعتقه وبعثه وعقد له فى سنة ثمان وسبعين على افريقية وما خلفها »

والرواية هنا ظاهرة الاضطراب فقد عقد لموسى على

(١) طبع بمدريد ( مجريط ) سنة ١٨٦٧

ولاية افريقية فى عهد الوليد . والوليد تولى الخلافة سنة ست وثمانين ، وكانت ولاية موسى بعد هذا التاريخ لا قبله كما ذكرت هذه الرواية . إلا انه يفهم منها أن أسرة نصير من أهل العراق ، وانها كانت من سبي خالد

وفى نفح الطيب (١) : ان موسى بن نصير كان عاقلا شجاعا كريما تقيا لله تعالى . ولم يهزم له جيش قط . وكان والده نصير على جيوش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة ولما خرج معاوية لصفين لم يخرج معه . فقال له مامنعك من الخروج معى ولى عندك يد لم تكافئنى عليها . فقال : لم يمكنى أن أشكرك بكفرى من هو أولى بشكرى منك فقال معاوية : من هو . قال : الله عز وجل . فأطرق معاوية مليا ، ثم قال : استغفر الله ورضى عنه .

وفى ابن الاثير ان نصيراً — أبا موسى — كان على حرس معاوية فلما سار معاوية الى صفين لم يسر معه . .

---

١) ص ١١٢

(ثم أورد رواية نفح الطيب السابقة)

ومهما يكن أمر نصير وهل كان عراقيا نصرانيا كما تقول الروايات، أو كان فارسيا مجوسيا أو لم يكن كذلك، فقد أسلم وحسن إسلامه، وشارك في سياسة ذلك العهد.

وحدث في سنة ١٩ هجرية، أي في عهد خلافة عمر ابن الخطاب أن ولد له ابن أسماه موسى. وقد شهد هذا الوليد عهد عمر بن الخطاب، وتربى على مبادىء هذا العهد وتقاليده. ولذا عد من التابعين. يقول ابن خلكان «كان موسى بن نصير من التابعين. وروى عن تميم الداري رضي الله عنه».

وأدرك موسى في مطلع شبابه هذه الفتن التي أحاطت بحكم عثمان بن عفان، فتفتحت نفسه للسياسة، ورأى أباه يعمل لمعاوية. ويكون رئيس حرسه. ولكنه تجنب الفتنة بينه وبين علي، واعتزل. ويظهر ان النجاة من محيط الفتن الذي آثره نصير، لم يقنع ابنه كثيراً، فقد انضم بعد حين

الى عبد الله بن الزبير فى ثورته ضد الامويين ، وظل بجواره ، ثم شهد معركة مرج راهط التى هزم فيها اليمنيون وهو معهم . وقد فر بعد الهزيمة ، فطلبه الخليفة وأراد قتله ، ولكنه استجار بعبد العزيز بن مروان فأجاره وشفع له عند مروان . ومن ذلك الوقت أصبح موسى مولى من موالى بنى أمية .

وكتب له أن يتجنب هذه الاحزاب الثائرة ، وأن يسير فى ركاب بنى أمية ، حتى أن عبد الملك بن مروان ولاه على أراضى البصرة ، فسار موسى فى عمله بجد لا ليخدم الخليفة ، ويخدم أهل هذا الاقليم ، ولكن ليخدم نفسه فقد بدد مبلغا كبيراً من المال ، ألزمه عبد الملك بأدائه فأسرع الى مصر ، حيث كان يحكم مولاه القديم عبدالعزيز ابن مروان ، واستجار به مرة أخرى . فأدى عنه عبدالعزيز بعض المال المطلوب ، وشفع له فى الباقى . ومنذ ذلك الوقت ظل موسى مقيما فى مصر الى جوار عبدالعزيز ، حتى سطع

نجمه مرة أخرى ، فصدر الامر بتوليته امارة افريقية

...

تركنا افريقية منذ حين وقد سار عنها واليها حسان الى المشرق ، ورفض أن يعود الى عمله . وانتهز البربر هذه الفرصة ، وتحركوا حركات خفيفة ، فما أن وصل موسى حتى قرر أن ينهج فى أعماله الحربية نهج عقبة بن نافع : فيسير فى الاقاليم كلها ، ويقر أمر الاسلام فيها . وكان موسى موفقا فى عمله ، فلم تعترضه صعوبات تذكر ، وكان كل همه ترك العلماء حيثما حل ليفقهوا البربر فى الاسلام . وقد انتهى به المطاف الى حيث انتهى بسلفه الكبير عقبة ابن نافع ، فوقف عند المحيط الاطلنطى — أو بحر الظلمات كما كان يسميه العرب .

وذكرنا منذ قليل أن عقبة وصل الى طنجة ، وصالحه حاكم اقليمها ( اسم الاقليم سبته ) الكونت يليان .

ولاقليم سبته أهميـة كبيرة فى فتح الاندلس ويحسن

بنا أن نقول عنه كلمة . .

هو يقع فى المثلث الافريقى المواجه لاسبانيا ، وكان منذ القدم تابعا لحكومة بيزنطة أسوة بجميع افريقية . إلا ان فتوح العرب ، وبعد الشقة بينه وبين بيزنطة حملت حاكم سبته على أن يدين بالطاعة العملية (١) لأقرب الدول الاوربية له. وهى اسبانيا. وبذا أصبح تابعا للملك القوطى لذى يحكم هذه المملكة الاوربية . . فلما وصل عقبة بن نافع الى منطقته صالحه على جزية معلومة ، ولما انحسرت موجة الفتح نتيجة لفتن البربر المتوالية انقطعت الصلة بين الكونت يليان وبين القيروان . وهانحن هؤلاء نرى موسى بن نصير يقترب مرة أخرى من سبته فماذا هو صانع .

قبل أن يفكر الكونت يليان فى مجابهة هذا الخطر الجديد . حدث تعديل فى القيادة الاسلامية بهذه الجبهة .

---

(١) يشبه هذا الموقف حال مصر قبل الحرب العظمى. فقد كانت تابعة اسما لتركيا ولانجلترا عملا

فقد اختار موسى بن نصير أحد قواده . ليتولى حصار المنطقة . وعاد هو الى القيروان . ولم يكن هذا القائد غير طارق بن زياد . . الجندى البربرى . الذى اعتنق الاسلام وأعتقه العرب لشجاعته وبسالته .

اتصل الكونت يليان بطارق ، وكان التفاهم بينهما سهلا فأولهما أوربى بحكم لمولدوالدماء (١) وثانيهما ـ طارق ـ من البربر . . والبربر ليسوا إلا سلالة الوندال القدماء فقد كان أبيض الوجه . أشقر الشعر أزرق العينين . حتى ان بعض المؤرخين المحدثين يعدونه جرمانى الاصل أكثر منه أفريقيا . .

يذكر ابن عذارى المراكشى فى كتابه : البيان المغرب فى أخبار المغرب : اختلف فى نسب طارق . فالأكثرون على أنه بربرى . . وأنه مولى لموسى بن نصير من سبي البربر وقال آخرون انه فارسى الخ .. والواقع أن أمر

( ١ ) قيل هو قوطى . وقيل هو اغريقى . وقيل هو بربرى !!

طارق لا يحتمل خلافا ، فهو بربرى ، وان أضاف هـذا المصـدر إلى اسمه عشرات اسماء الفرس . فهكذا تعـود المؤرخون القدماء ان يضيفوا مثل هذه الاسماء شغفا منهم بالانساب وبضرورة تحقيقها ، سواء جاءهم من العلم بنبئها ما يحتمل الصدق ، أو جاءهم منه ما لا يحتمل الصدق ..

ومهما يكن الامر فقد اتفق طارق مع الكونت يليان على أن يظل حاكم اقليمه ، وأن يدين بالطاعـة لحاكم القيروان ويؤدى له الجزية . . وبقى طارق فى هذه الجبهة يضبط امورها ويسوسها

يقول ابن عذارى : استعمل موسى بن نصير طارق ابن زياد على طنجة وكان يليان مجاورا له بالجزيرة الخضراء التى تلى طنجة ، فداخله طارق حتى صار معه إلى الرضا . ووعده يليان بادخاله الاندلس . . .

ونريد وقد اصبحنا قاب قوسين من فتح اسبانيا ان نقول عن هذه البلاد كلمة قبل دخول العرب اليها ..

— ٢ —

## الاندلس

كانت اسبانيا احدى البلدان التي تكون الامبراطورية الرومانية القديمة ، وتدين بالطاعة لروما وقياصرتها . فلما ضعفت هذه الامبراطورية ، واغارت عليها قبائل الهون والوندال ، أصابت اسبانيا غارة من هذه الغارات . فقد اجتاحها الوندال في القرن الخامس الميلادي واسموها واندلوسيا أي بلاد الوندال . وأخذ العرب من هذه التسمية القديمة كلمة الاندلس واطلقوها على شبه الجزيرة .

وجاءت بعد هذا غارة القوط الغربيين (Visigoths) على اسبانيا ، فأجلوا عنها الوندال ، الذين هربوا إلى شمال افريقية ، واختلطوا بأهلها ، وعمروا سفوح الاطلس

وكان قدوم القوط الى اسبانيا في أول القرن السادس الميلادي ( عام ٥٠٧ ) . وقد حاولوا في أول أمرهم أن

يسيروا سيرة حسنة فى هذه المملكة الجديدة التى استولوا عليها . ولكن مالبثت حياة الاستقرار أن استغرقتهم . فهاموا بالترف وانغمسوا فى حياة النعيم الى قمم رؤوسهم. وقد حجبتهم القصور والخمور والنساء عن الشعب . وراح جباة الاموال يسومونه سوء العذاب . ويعتصرون حيويته اعتصاراً

انفق القوط فى حكم اسبانيا — أو ايبريا كما كانوا يسمونها نحو قرنين من الزمان ،عانت فيها البلاد الويلات فقد انقسم اهلها الى طبقات :

طبقة الحكام والنبلاء ، وهى سلالة القوط الفاتحين التى استولت على أكثر الارض الزراعية . وكانت لها مناصب الجيش والرياسة فى الخدمات المدنية.

وطبقة رجال الدين ، وهذه الطبقة بدورها كانت تملك قسما كبيرا جدا من الارض معفى من الضرائب ، وكانت تشارك فى حكم البلاد . ولم يكن الحكم الا البحث

فى وسائل جباية الاموال وزيادة ثروة الحاكمين

وكان دافعوا الضرائب ، يكونون الطبقة الثالثة ، وهى طبقة التجار والصناع وصغار الملاك . ويقع على عاتقها عبء دفع الاموال..

وثمت طبقة أخرى هى طبقة رقيق الارض . وهؤلاء كانوا يفلحون أرض كبار الملاك ، ويدخلون فى عداد ثروة المالك كأحد متاعه . ولم تكن لهم حقوق ولكن كانت عليهم واجبات العمل فى الأرض . فاذا انتقلت ملكية الأرض من سيد الى سيد . انتقلوا الى يمين المالك الجديد ...

وكانت تسكن اسبانيا طبقة أخرى ، لعبت دورا كبيرا فى حياة اسبانيا وهى طبقة اليهود . فقد تمكنوا كعادتهم فى كل زمان ومكان من الاستحواذ على مرافق البلاد الاقتصادية . وأحس الحكام بوطأتهم ، فراحو يناصبونهم العداء . وقد بدأ اضطهادهم الملك القوطى ريكارد

( ٦٧٤ — ٦٠١ م ) الذى صادر شعائر اليهود الدينية ومنعهم من التزاوج حسب شريعتهم ، ولم يبح لهم الختان ولا انتقاء اللحوم ( الشرعية ) كما منعهم من الشهادة ضد المسيحيين . وكانت عقوبة المخالف الرجم بالحجارة حتى الموت أو احراقه حيا .. وقد اجتهد اليهود لدرء هذه الاخطار فى رشوة الحكام ، ولكن ما كاد يتولى ملك تال هو الملك « سيوت » ( ٦١٢ — ٦٢٠ م ) حتى تمالى فى اضطهادهم بان أصدر لهم أمرا اجماعيا باعتناق الدين المسيحى ومن يخالف هذا الامر يطرد من البلاد فورا .. فهرب كثيرون الى أفريقة وفرنسا وتنصر تسعون الفا . ولكن كانت نصرانيتهم فى الظاهر فقط اتقاء نكال المالك

وأحس حكام اسبانيا بأن اليهود لا يزالون قوة بعد كل هذا ، فعقد فى سنة ٦٧٣ م مؤتمر دينى فى طليطلة تقرر فيه انتزاع أبناء اليهود السابقين من أهلهم ، وتربيتهم فى أديرة المسيحية ، وفى مؤتمر تال صدر قرار بان يقسم

كل ملك جديد يتولى عرش اسبانيا على التشديد في اضطهاد اليهود

وقد اكتشفت بعد هذا مؤامرة يهودية قصد بها عمل انقلاب في الحكم ، وتدبير ثورة ضد المسيحية ، فكان كشفها سببا في زيادة التنكيل بهم . فقد صدرت الاوامر بمنع التزاوج بين اليهود بعضهم وبعض ، فاليهودي يتزوج مسيحية ، واليهودية تتزوج مسيحيا ...

ومع هذا . . ظل اليهود هم اليهود يتربصون . ويتحينون الفرصة . فما أن وصل العرب الى شواطيء أفريقية الشمالية . حتى راحت رسلهم تخاطب قواد المسلمين وتمهد لهم سبيل غزو اسبانيا

## — ٢ —

## الكونت بلياس وابنته

اتجه بعض المؤرخين المحدثين الى تفسير أحداث التاريخ الكبرى على ضوء الحوادث الشخصية التي تضطرب بها حياة الناس الخاصة. وقد أسرف فريق من هؤلاء المؤرخين فى الاخذ بهذه النظرية حتى أرجعوا اليها كل شىء. فلو لم يكن نابليون قصيرا لحدث كذا وكذا. ولو كان هتلر متزوجا لتغير تاريخ الالمان. وهكذا أخذوا يفتشون فى خلجات نفوس كبار الناس وقادتهم. ويدرسون الصلات الخاصة التى تنشأ بينهم وبين الآخرين دراسة تفصيل واسهاب ويخرجون منها النتائج ويربطونها باسبابها الظاهرة.

وهذا المذهب على قيمته وجدواه شديد الخطر اذا صرف المؤرخ عن البحث فى الظروف العامة وفى نزعات

الجماعة الانسانية التي تكون تاريخ أمة من الأمم. ولكنه في نفس الوقت لازم ، وفي اهماله تضييع لحق الفرد الممتاز على نفسه ، فالتاريخ من صنع الافراد والافراد من صنع أنفسهم كما هم من صنع بيئتهم.

والذي ساقنا الى هذه المقدمة ، قصة خاصة ، اجمعت جميع مصادر التاريخ الاندلسي على ايرادها ، وأرجعت اليها السبب المباشر في تمهيد الطريق أمام طارق ابن زياد والفتح الاندلسي.

ومؤدى هذه القصة ، أنه كان من عادة الامراء من الفرنجة في العصور الوسطى أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم الى قصور الملوك لكي ينشأوا فيها نشأة ممتازة . ويتشبعوا بتقاليد وثقافة هذا الجو المترف الذي نشرته الأسر الحاكمة من حولها ، حتى اذا مضى الفتى أو الفتاة بضعة أعوام عاد الى مقر أبيه مطبوعا بطابع الحياة التي خلفها في مقر الملك .

وكان الكونت يليان تابعاً لملك اسبانيا ردريك (Roderic) الذى اختار حمايته كما قلنا على حماية أمبراطور بزنطة لبعد هذا وقرب ذلك من بلاده سبته . وكانت لهذا الكونت فتاة صغيرة اسمها فلورندا (Florinda) . رأى أن يسير بها سيرة الأمراء ، فأوفدها الى قصر ردريك فى طليطلة لتنشأ هنالك . وكانت الفتاة على حظ كبير من الجمال ، فمال اليها ردريك ، واحتال عليها حتى اغتصبها . ولم يكن هذا الحادث الفاضح مألوفاً فى تقاليد القصور . اذ كان على الملك ان يصون فتيات الامراء فى قصره كما يصون بناته هو .. وقد احتالت فلورندا حتى أبلغت اباها النبأ المشين . وهنا ثارت ثائرة يليان . ولم يجد سبيلا للانتقام الا أن يتحالف مع العرب سرا لكى يغزوا اسبانيا ويزيلوا ردريك . الملك النذل ، عن عرشه

هذا هو مؤدى القصة ، مع تفصيل فى بعض المراجع وايجاز فى البعض الآخر . وقد اوردها لين بول فى تاريخه

وكثيرون غيره عن الاندلس وقال إنه يقص هذه القصة دون أن يتثبت من صحتها . وقد احتلت قصة فلورندا او كافا كما اسماها العرب قسما هاما من تاريخ الفتح الاندلسى لا يمكن تجاهله . ولو ان قصتهـا حديث خرافة ، اذا لامكن أن يوصم الكونت يليان بالخيانة العظمى ، لانضمامه لى صفوف العرب .

* * *

والملك ردريك هذا الذى خرج على تقاليد الشرف والفروسية . . من هو وماشأنه ؟

فى سنة ٧٠١ م تولى ملك اسبانيا ملك من الاسرة المالـكة القوطيـة وتزا Witiza ويسميه العرب ـ غطشة وحدث فى عهده خلاف كبير بينه وبين البابا . وذلك أنه أباح للقسس الزواج ، كما اباح لليهـود المنفيين العودة إلى اسبانيا . وقد لجت الخصومة بينه وبين البابا حتى عين اخاه مطرانا لطايطلة مع وجود مطران من قبل روما . وانتشرت

فى عهد هذا الملك الفتى ، فاخضع الثورات بشىء غير قليل من العنف ومات فى سنة ٧٠٩ م

وكان ردريك ـ اوردريق ـ كما اسماه العرب ، احد القواد ، وكان طامعا فى العرش . فما ان مات «غطشة» حتى نحى ابناءه واستولى على الملك . يقول المقرى فى نفح الطيب :

« لم يكن لذريق من ابناء الملوك ، ولا بصحيح النسب فى القوط ، وانه نال الملك من طريق التغصب والتسور عندما مات غيطشة الملك الذى كان قبله . وكان اثيرا لديه مكينا . فاستصغر اولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه . فانتزع الملك من اولاد غيطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبروا عليه فيما ذكر عندما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق ، وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير ، طماعة (طمعا) منهم فى ان يؤدى ويخلص اليهم ملك أبيهم »

وهكذا نستطيع ان نضيف الى نقمة يليان على ردريك

بسبب ابنته أسبابا أخرى ، وهى :

أولا :— كثرة الاضطرابات والفتن فى اسبانيا نتيجة غضب البابا ، وعسف الملك

ثانيا :— اغتصاب ردريك العرش ، وانقسام اسبانيا إلى حزبين حزب يؤيد أبناء « غيطشه (١) » والحزب الآخر يناصر ردريك

وكان حزب ردريك يتألف من الرومان ، سكان البلاد قبل دخول القوط ، وقد استظهر بهم على هؤلاء القوط ، ومنع الزواج بين المنصرين ، وكان حوله أيضا رجال الكنيسة الكاثوليكية الذين غضبوا على الملك السابق .

ولم يمض وقت كثير حتى سار ردريك سيرة أسلافه فى الانغماس فى اللهو والمجون ، واعتصار أقوات الشعب وارزاقه لتغطية نفقات القصور ، وجنون الحفلات والمآدب .... وهكذا لم يفد الشعب شيئا من تغيير حاكمه

(١) ابناء غطشة هم Olemundo ، Romulo ، Ardaliasto

نعود بعد أن شرحنا طرفا من أخبار الملك الحاكم فى اسبانيا إلى قصة الكونت يليان وابنته فلوروندا .

يقول السلاوى : احتالت الفتاة حتى أعلمت اباها سرا ، فاحفظه ذلك ، وحمى أنفه وقال : ودين المسيح لازيلن ملكه ، ولأحفرن ماتحت قدميه . وكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس ، مع سابق القدر . ثم ان يليان عبر سبتة فى فصل الشتاء واصعب الاوقات ، فقدم طليطلة ، واجتمع بالملك (ردريك) . فأنكر مجيئه ذلك لوقت ، وسأله عن السبب فذكر خيرا ، واعتل بأن زوجته قداشتد شوقها إلى ابنتها ، وأنه أحب اسعافها بطلبتها . وسأل الملك تمكينه منها ، وتعجيل سراحه الى عمله . ففعل ، وأحسن جائزة الجرية (فلوروندا) وتوثق منها بالكتمان ، وأفضل على ابيها ، وانقلب راجعا . وذكروا أنه لما ودعه ، قال له لذريق : إذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات (نوع من طير الصيد) التى لم

تزل تطرقنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا ـ يعني بذلك طيورا فارهة كانت تتخذ للاصطياد . فقال له يليان : أيها الملك . وحق المسيح لئن بقيت لادخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط ـ يعرض له بما أضمره من ادخال العرب عليه .. »

## - ٣ -

## الى الأندلس

عاد يليان من اسبانيا ، وتوجه من فوره الى القيروان حيث قابل موسى بن نصير ، وأخذ يحدثه عن الاندلس ، ويزيد له قيمتها . يقول المقرى فى نفح الطيب

«تهيأ يليان للمسير نحو موسى بن نصير الامير ، فمضى نحوه بافريقية ، وكلمه فى غزو الاندلس ، ووصف له حسنها وفضلها وما جمعت من أشتات المنافع ، وأنواع المرافق وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثرارة المياه ،

وعذوبتها . وهون عليه مع ذلك حال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء . فشوق موسى إلى ماهنالك . وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه يليان . فعاقده على الانحراف الى المسلمين . . » . ورأى موسى أن يختبر إخلاص الكونت حتى لا تكون دعوته هذه مكيدة يدبرها للمسلمين فطلب منه أن يغير هو على احد شواطىء الاندلس ، ويكون معه رقباء من العرب ليتأكد من انه يعادى الاسبان حقا . فلم يتردد حاكم سبته ، واعد سفينتين ، وسار بهما الى اسبانيا واغار على احدى مدن الشاطىء الاسبانى ، وانتهبها ، ثم عاد . . وأنبأ الرقباء موسى بن نصير بما حدث فاطمأن قلبه ، وقرر أن يعمل على غزو الاندلس .

ولا بد لتنفيذ عمل خطير كهذا من استئذان الخليفة فى دمشق ، فسير اليه البريد يصف له الاندلس ، ويذكر له هذه الاحداث الاخيرة ، ويطلب منه الاذن بالفتح فكتب اليه امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك . « خضها بالسرايا

قبل حتى ترى وتختبر شأنها . ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال ». فرد عليه موسى: « انه ليس ببحر زخار (كبير)، وانما هو خليج منه يبين للناظر ماخلفه . فرد الوليد . « ان كان ولا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه »

ونفذ موسى امر الخليفة ، فأعد بعثة من اربع مئة جندى ومئة فارس على رأسهم قائد بربرى اسمه طريف قلتهم اربع سفائن إلى احدى الجزر المواجهة للشاطىء الاسبانى . ومن هنا اغار طريف على الشاطىء « فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا . ومالا جسيما وأمتعة وذلك فى شهر رمضان سنة ٩١ هـ » ويوافق التاريخ شهر يوليو ٧١٠ م

واخذ موسى يفكر فى طريقة الغزو ، وخشى الكونت يليان من البطء فسار الى القيروان مرة اخرى ، وحث موسى على التعجيل فى الفتح حتى لا تضيع الفرصة .

ويظهر ان موسى بعد كل هذا لم يكن مطمئنا كل

الاطمئنان ، فقرر ان يشن غارة اخرى على شواطىء اسبانيا اجرأ من غارة طريف ، ليرى كيف يقابلها الاسبان . وكان طبيعيا ان يختار قائد الحامية الغربية، طارق بن زياد الامير البربرى ، وأن يكلفه بمهمة الاغارة . .

ومما رجح لدينا القول بأن موسى لم يكن يريد من طارق إلا الاغارة فقط ، أى انه لم يرد منه الفتح الكامل . ان عدة الجيش الذى سيره معه كان قليلا ، ثم انه كتب له بعد ان رآه زحف الى الامام وتوغل: «ما دعاك إلى الايغال والتقحم فى البلاد بغير امرى . وانما كنت بعثتك غازيا ثم تنصرف»

إلا أن على هذا الترجيح مآخذ فسنرى بعد قليل أن طارقا طلب من موسى مددا فأرسل له المدد ، ولو أنه لم يكن منه إلا الاغارة الخفيفة على الشاطىء لطلب من العودة ولم يسعفه بالمدد ، ثم انه يعلم أن لم يكن تحت تصرف طارق غير سفن قليلة ، ولو اراد الجيش العودة لخطار مفاجىء لما كفت هذه السفن نقل عشر الجيش دفعة واحدة . وأبلغ

من هذا أن طارقا أحرق ( فيما يقال ) هذه السفن حتى لا يكون لاحد من جنده مطمع فى العودة .

وعلى هذا فيمكن القول بأن موسى لم يكن يعارض فى الفتح ، فلما رأى نجاح طارق الباهر حقد عليه وحسده لانه لم يكن هو صاحب هذا المجد ، فمنعه على المضى دون اذنه . . وفى نفس الوقت كان طارق راغبا كل الرغبة فى الاستيلاء على الاندلس ، وليس هناك مايمنع من ان يكون قد تجاوز الحدود التى رسمها له موسى ، ومضى الى الامام تحت تأثير هذه الرغبة الملحة فى الغلبة والفتح

– ٤ –

## العدو امامكم . . والبحر وراءكم !!

يقول المقرى :

« عقد موسى لطارق ، وبعثه فى سبعة الاف من المسلمين جلهم البربر والموالى وليس فيهم عرب إلا القليل

ووجه معه « يليان » . فهيأ له يليان المراكب . فركب فى اربع سفن لا صناعة ( اسطول ) له غيرها . وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم سبت فى شعبان سنة اثنين وتسعين فى شهر اغسطس . ثم صرف المراكب الى من خلفه من اصحابه فركب من بقى من الناس . ولم تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل .. »

ولما تكامل هذا الجيش الصغير تحت أمرة طارق ، وقف فى سفح الجبل ( Mont Calpo ) وخطب جنده قائلا :

أيها الناس :

أين المفر ! البحر من ورائكم . والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا انكم فى هذه الجزيرة أضيع من الايتام فى مأدبة اللئام . وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته . وأقواته موفورة وأنتم لا وزر (ملجأ) لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الايام على افتقاركم

ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم ، وتعوضت القلوب برعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية . فقد ألقيت به اليكم مدينته الحصينة . وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت . وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ـ وأنا أبدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي . فما حظكم فيه بأوفى من حظي . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجادلة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم

ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة .
وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا في الدارين . واعلموا انى أول مجيب الى مادعوتكم اليه. وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى . . فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون . . »

وكان لهذه الخطبة تأثيرها الكبير فى نفوس هذه الحفنة القليلة من الرجال ، التى ترى نفسها وقد أحاطت بها الجبال العالية حتى سدت الافق ، وهى فى أرض لا تعلم عن أمرها شيئا ، وتواجهها قوات يعلم الله وحده عددها ومقدارها . ثم انه لا مطمع لها فى نهاية الامر إلا النصر على هذا العدو

المجهول أو الموت فى أرضه — أرض الغربة البعيدة — أو الغرق فى هذا البحر الذى حملهم منذ قليل الى جزيرة الاندلس ! ...

ونحن بعد ثلاثة عشر قرنا من القاء هذه الخطبة نقف عندها فتأخذنا بلاغتها، وسلاستها، وعزيمة صاحبها الجبارة، وارادته التى لا ترد .. ولكننا نلاحظ أن الرواة تزيدوا فى بعض نواحيها . فهو يذكر أن جيشه من الابطال العربان ولم يكن مع طارق من العرب غير ثلاث مئة وبقية الجيش من البربر . ثم انه يتحدث عن اليونان أهل الجزيرة . وما كان أهلها من اليونان ولكنهم من بقايا الوندال القدماء ثم الرومان ثم القوط المتغلبين . وقد لا تكون هذه الاسجاع مما لا يفهم عن بربرى أفريقى دخل فى الاسلام وحظه من العلم بلغة العرب لا يصل الى مرتبة الترصيع والتسجيع . ولو أن الخطبة خلت منها اذن لزانتها البساطة بدل التكلف، وكانت أقرب الى فطرة تلك الايام، سواء كان قائلها من العرب

الافتحام، أو الاجانب المتعربين . وقد أورد المقرى كما أورد ابن خلدون الخطبة بالنص الذى ذكرنا دون تحريف

• • •

كانت أول المقاطعات التى نزلها طارق تحت حكم قائد أسماه العرب تدمير، واسمه الحقيقى ثيودمير Theo dmir وقد رأى الاقبل له بقتال هذا الجيش المغير، فأخذ ينسحب أمامه ويطاوله، كما كتب لذريق كتابا يخبره فيه بالنبأ الخطير . قال له . « أنه قد نزل بأرضنا قوم لا ندرى أمن السماء هم أم من الارض » وطلب منه المدد . وأن يحضر بنفسه على عجل . فقد سبقت العرب خلال حروبهم فى السنين السبعين التى وطئت أقدامهم فيها الشمال الافريقى دعايات واسعة عن بسالتهم وجرأتهم والاقاصيص التى تروى عن بطولتهم

أين كان رودريك فى هذا الوقت ؟!

• • •

كان ردريك فى هذا الوقت يحارب فى أقصى الشمال من اسبانيا ، ليخضع قبائل البشكنس Basques الثائرة فى جبال البرانس . ويقال ان يليان هو الذى أوعز له بالمسير الى الشمال فى هذا الوقت حتى يخلو الجو فى الجنوب لحلفائه العرب ، وحتى تؤخذ البلاد على غرة فى غيبة ملكها بأحد الاطراف النائية .

وما أن تلقى ردريك ( ملك اسبانيا ) نبأ غزوة العرب حتي هرول على عجل الى قرطبة . وأخذ يجمع فى طريقه الجند وعدة الحرب . ولكن الملك الذى سبقه ، كان قد صادر سلاح الاهالي ، كما أن انقسام الشعب وسوء حاله ، وضعف معنوية الكنيسة وانغماسها مع الحكام فى الشهوات ، وموقف اليهود العدائى ودسائسهم التي لا تنقضى .. كل ذلك كان من العوامل التى قللت من عدد المجندين ، ومن سار مع ردريك سار مكرها . وهذا بطبيعة الحال غير خاصة جنده الذين يشايعونه سياسيا ، فهؤلاء كانوا يشدون أزره بقوة .

يقول نفح الطيب : « لما اقتحم طارق الاندلس تقر

إليه لذريق ، واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس ، وكتب إلي أولاد غيطشه (الذين اغتصب منهم العرش) وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتخذوا الرجال ، يدعوهم إلى الاجتماع معه علي حرب العرب ، ويحذرهم من القعود عنه ، ويحضهم علي أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة . فلم يجدوا بدا . وحشدوا ، وقدموا عليه بقرطبة ، فنزلوا اكناف قرية شقندة ، بعدوة نهرها قبالة القصر ، ولم يطمئنوا إلي الدخول على لذريق أخذا بالحزم ، الي أن استتب جهاز لذريق ، وخرج ، فانضموا إليه ، ومضوا معه ، وهم مرصدون لمكروهه ... »

وكان طارق قد استمر فى زحفه من الجنوب حتى وصل الى بحيرة أمام مدينة شدونه اسمها لاينده (La Jande) . وهناك جاءته الانباء بمسير ردريك اليه فكتب الى موسى بن نصير يطلب منه المدد علي عجل ويقول له انه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس وملك المجاز اليها ، واستولى علي اعمالها الى البحيرة . وان لذريق زحف اليه بمالا قبل له به إلا أن يشاء الله . وكان موسي منذ وجه طارقا لوجهه ، قد أخذ فى عمل السفن حتي صارعنده منها عدة كثيرة ، فحمل الى طارق

فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا كملت بهم عدة من معه اثنى عشر الفا اقوياء على المغانم حراصا على اللقاء ، ومعهم يليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات ، ويتجسس الاخبار .. ) (١)

والخلاف بين المؤرخين كثير حول عدد جيش ردريك . فأقل تقدير هو ماذكره ابن خلدون من أنه كان اربعين الفا . واما المقرى فيصعد به إلى مئة الف ، ويتوسط بقية المؤرخين بين هذا وذاك . فيقول لين بول مثلا ان جيش القوط كان ستة أضعاف جيش المسلمين أي كان اثنين وسبعين الفا ...

تزاحفت الفوتان وكان لقاؤها عند نهر صغير يسمى وادى لكه كما يدعوه العرب، او وادى بكة (Wadi Bekka) كما ورد في المراجع الاجنبية . وقد حقق دوزى هذا المكان الذي دارت فيه معركة من اخطر معارك التاريخ كله . فقال إن هذا النهير الصغير يحمل الآن أسم نهير سلادو (Salado) ويصب في البحر غير بعيد من رأس الطرف الاغر (Trafalgar) . وقد حقق الادريسي قديما هذا المكان وشاهد بنفسه مكان المعركة ...

١ نفح الطيب ص ١٢٠

وفي ١٩ يوليوسنة ٧١١ ، (رمضان سنة ٩٢) بدأت المعركة الفاصلة التى استمرت ثمانيـة أيام ... وكانت لا تتجاوز في اليوم الاول المناوشات التي تحدث بين الجيوش لاختبار القوى وتهيئة الصفوف ... يروى المقرى أن ردريك أرسل احد اعوانه «ليشرف على عسكر طارق فيحرز عددهم ، ويعاين هيئاتهم ومراكبهم . فأقبل حتى طلع على العسكر ثم شد في وجوه من استشرفه من المسلمين فوثبوا اليه فولي منصرفا راكضا ، وفاتهم بسبق فرسه» ولما رجع الي الملك قال له انه شهد معسكر المسلمين وقد «جاءك منهم من لا يريد الا الموت ، او اصابة ما تحت قدميك . فقد حرقوا مراكبهم إياسا لانفسهم من التعلق بها . وصنعوا فى السهل موطنين انفسهم على الثبات اذ ليس لهم في ارضنا مكان مهرب. فرعب وتضاعف جزعه»

استمرت المعركة فى أرجح الاقوال ثمانيـة أيام ، وكل قائد يبذل جهده لتقوية رجاله ، وتثبيت أقدامهم واستثارة معنويتهم (١) ولكن كان جانب المسلمين أقوى.. فهم المهاجمون مع قلة عددهم ، وتوفر كل ظروف

١ — تروى خطبة طارق المشهورة : البحر وراءكم فى هذا المقام : وقد أثبتنا نصها قبل .

الاستبسال لهم . وكان القتال عنيفا جدا ، يصفه كتاب البيان المغرب بقوله. « فاقتتلوا قتالا شديدا حتي ظنوا انه الفناء » ويقول المقرى « واقتتلوا قتالا شـديدا الي ان انهزمت ميمنة لذريق وميسرته . انهزم بهما ابّنا غيطشه وثبت القلب بعدهما قليلا وفيـه الملك » وقد ثبت القلب ولكنه أيضا انهزم ، وأعمل المسلمون حرابهم فى ظهور القوط « وخـفي أثر لذريق فلا يدرى امره ، الا ان المسلمين وجدوا فرسه الاشهب الذى فقد وهو راكبه وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد . وقد ساخ الفرس في طين وحمأة وغرق العلج ( الملك ) فثبت أحـد خفيه فى الطين فأخـذ ، وخفى الآخر . وغاب شخص العلج ولم يوجد حيا ولا ميتا »

وبظهـر أن القتال بهذا العنف لم يدم الا يومين او ثلاثة أيام فى أول فترة المعركة، وأنفق المسلمون الباقى فى مطاردة القوط . او انه استـمر بعنفه في آخر الايام الثمانية وكانت الضربة ساحقة ماحقة فلم يجتمع للقوط جمع حافل بعدها وخصوصا بعد موت ملكهم وانضمام أبناء الملك السابق للمسلمين .

ويحمل « دوزى » في كتابه حملة عنيفة على أولياء

العهد المخلوعين ، ويصف انضمامهم للعرب بأنه حمق أو خيانة . فقد كان في حسابهم ان البربر لايطلبون من بلادهم إلا المغانم ، وانهم سيغادرون الارض لهم بعد قتل خصمهم العنيد ، وسارق تاجهم ـ ردريك لكي يخلو لهم الجو ، ويجلس أحدهم على عرش آبائه . ولكنه حساب خاطيء ، فقد أضاعوا بعملهم هذا العرش ، كما أضاعوا اسبانيا نفسها .

واذن فقد ذهب آخر ملوك القوط ، ولم يعثر له على أثر . واذن فقد ضاع تاج اسبانيا من يدهم ، وتلقاه المسلمون . فظل زينتهم ثمانية قرون كاملة .

لقد حزنت اسبانيا المسيحية على ملكها وعلى استقلالها حزنا شديدا . وراح الشعراء ينشدون الاغانى الباكية يرثون بها آخر الملوك ـ دون رودريجو ـ كما أسموه . وتقول أحد هذه الاغانى على لسان الملك بعد أن تمت هزيمته

« كنت الليلة الماضية ملكا لاسبانيا . وأمسيت الليلة ولا ملك لي

« كنت الليلة الماضية أملك القصور . وانى الليلة مشرد لا أعرف أين اضطجع

« وكان يخدمني ليـلة أمس مئـة من الولدان وهم
ركع يسجدون
« واما الان !! أنادي فأسمع رجع الصدى وما من
أحد يلبي النداء
« ياالضيعة الامل وسوءها من ساعة . وياللعنة هذا
اليوم . .
« . . اليوم الذي ولدت فيه لأكون ملكا لهذا البلد
العظيم
« يالبؤسي وشقائيه . فعما قريب سأشـهد الشمس
تغرب ويهبط ليل ثقيل
« أيها الموت . من علمك التـاني والتمهل . ما الذي
تخشاه . هيا اضرب ضربتك القاضية »

وهل كان ينتظر من أمة الشدو والغناء إلا أن
تسكب أحزانها في اغانيها ، وتهيـل على ردريك الملك
الذي أبغضته حينا من الدهر أثواب البطولة ، وتتخـذ
منه رمزا لآمالها وأمانيها .

لقد استعاروا من عقيدتهم المسيحية خيالا ، واعتقدوا
ان ردريك ذهب . . ذهب حيا الى مكان بعيد في المحيط
ليبرأ من جراحه ، ثم يعود ويخلص أمة المسيح

الاسبانية ، من غزاتها العتاة . وكثرت من حوله الاساطير التي تصور نظرة الطوائف المختلفة .. فمنهم من اعتقد ان ردريك آوى الى ركن قصى من الارض ، يقضى أيامه في ندم . ويقطع نفسه حسرات علي ماجنت يداه فى الايام السالفة . وقد أقبلت عليه الثعابين الغلاظ من جميع أقطار هذا الركن الذى يأويه ، ثم أخذت تبتلعه وهو ينظر اليها هادئا وقد ثقلته خطاياه . فلما غسل ذنوبه في جوف هذه الثعابين ، خرج منها مطهرا ، بعد أن عاني الالم والاسى الذى طهر روحه من آثامها . وانه اليوم يقيم في جزيرة السلام ، وينتظره الاسبانيون لكي يعود فيحمل راياتهم وينتصر علي الاعداء . . ولعل بعضهم ينتظر رجعته حتى اليوم (١)

* * *

---

(١) توجد عقيدة الرجعة فى كثير من خرافات الشعوب . ومن الشيعة المسلمين من يعتقد ان الامام محمد بن الحنفية ، قد آوى الى جبل رضوى بقرب ينبع ، وانه يأكل هناك العسل المصفي . وهم ينتظرون خروجه بالقرب من الجبل ليملأ الارض عدلا كما ملئت ظلما وجوراً . . (راجع قلب جزيرة العرب لفؤاد بك حمزة ص ٩٥)

نترك ردريك يأوى الي مايشاء من الجزر ، وكل ماتحققنا من أمره بعيدا عن هذه الاساطير انه سقط فى النهير ، واندفعت جثته مع التيار فى البحر، فتلقفه الموج وكان من المغرقين .

نتركه لنبحث عن طارق الظافر الذى دعاه الاسبان من هـــذه المعركة ـــ الاحول ـــ فاذا هو مع جنده يتعقب افلال الجيش القوطى حتي يبدد شمله . وما كانت هذه الاخلاط التي جمعها ردريك بقادرة على التجمع ، وفي وسطها اليهود يفرقون وحـــدتها ، وفي عظامها خلق الرقيق يهد من اصلابها . .

لقد بسط طارق ـــ بهذا النصر ـــ قدميه على اسبانيا كلها فلم تحدث بعد معركة وادى نهر لكه حرب تذكر

وقد نقل نفح الطيب عن الرازى : « اتصلت الحرب بينهم ثمانية أيام ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم اقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبســة بتلك الارض .. وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره . فـكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتيم الذهب يجدونها في أصابعهم . ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس . فجمع طارق

الفيء وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والاتباع ، وتسامع الناس من أهل بر العدوة ( الشمال الافريقي ) بالفتح على طارق بالاندلس وسعة المغانم فيها . فأقبلوا نحوه من كل وجه . وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ( الواح الخشب ) ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الاندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال . . .»

٥

## عمامة مغيث .. وجسر عبد الاسود !!

## ومائدة سليمان

بعد هذا النصر المؤزر الذى أحرزه طارق ، وبعد مصرع ردريك انحدر طارق كالسيل الدافق إلى اشبيلية ومر في طريقه ببعض القرى والمدائن الصغيرة فدانت له . وما أن وصل طارق الى اشبيلية حتى وجد أهلها ، وقد خارت قواهم مقدما ، فسلموا له من غير حرب ، وصالحوه على جزية يؤدونها له .

واستمر فى زحفه ، إلي بلدة تسمى « استجه » فقد سمع أن فلول جيش ردريك تجمعت عندها ، وأنهم بدأوا يلمون شعثهم استعدادا لمناجزة طارق . ولكنه فاجأهم حيث هم ، فصمدوا له طويلا ، وأصيب المسلمون بخسائر غير قليلة ، ولكن طارقا ظهر عليهم بعد عناء شديد ومحق قوتهم محقا . وكان تجمع هذه القوة ثم تبددها آخر محاولة جادة من جيش المملكة القوطية المنهارة للدفاع عن اسبانيا .

وكان حسن الحظ يلازم طارقا فى الحملة ، فقد كان شديد الرغبة في الظفر بقائد قوة القوط الذى قاد معركة استجه . ولكنه لم يظفر . وفى ليلة كان طارق يسير منفردا صوب أحد الانهار ، فلقى قوطيا يستحم في الماء فوثب عليه بمفرده ، وأخذه أسيرا الي معسكره ، ولما كشف عن شخصه ظهر له أنه القائد الذي يجد فى البحث عنه . وقد تصرف معه طارق تصرفا نبيلا . فلم يقتله ، وانما أمنه على حياته ، وأعاده الى حكم مدينته مقابل جزية يؤديها بعد أن استوثق من ولائه . فكان إحسانه الي هذا الرجل دعاية طيبة لطارق في المدائن الاخرى .

وقد رافق هذه الدعاية دعاية أخرى أشد تأثيرا .

وذلك أنه ذاع من معسكر طارق أن جند الجيش المغير يفضلون لحوم الاسرى والقتلي فى طعامهم على ماسواها من لحوم !! وقد اثارت هـذه الاشاعة الفـزع الا كبر فى كل مكان ، وارتجفت لها الاندلس من اقصاها إلى اقصاها . .

وهكذا كانت إشاعة احسانه لمن يهادنه من أهـل المدائن والقري ، «وأكله» لمن يعانده ويعصاه سببا فى استسلام كثير من البلاد له

ورای «يليان» مشير طارق ، أن يعدل القائدالفاتح عن خطة زحفه بجيشه كله ، وان يفرق هذا الجيش إلى وحدات تسرع الي كل وجه من وجوه الاندلس وتطأ كل أرض البلاد في وقت متقـارب ، حتي لا يجتمع لهـا شمل . وراقت الفـكرة لطارق . فنفذها فورا

قسم الجيش الي أربعة أقسام ... فبعث أحد ضباطه، واسمه مغيث ، الى قرطبة، وأمده بسبعمئة جندى ركبوا جميعا خيلا من التى غنموها ، فأصبحوا جيشا من الفرسان لاراجل بينهم ، وانطلقوا فى طريق قرطبة

ووجه جيشا آخر إلي غرناطة وجيشا ثالثا الى

مالقه ، وسار هو فى بقية الجيش الي طليطلة مدينة القوط .

أما فرسان الجيش الاول ، الذي توجه الى قرطبة ، فقد ذكر عنه نفح الطيب .

« كمنوا بعدوة نهر شقندة ، في غيضة أرز شامخة ، وأرسلت الادلاء ، فأمسكوا راعي غنم . فسئل عن قرطبة . فقال : رحل عنها عظماء أهلها الي طليطلة ، وبقي فيها أميرها في أربع مئة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها . وسئل عن سورها فأخبر انه حصين عال فوق أرضها ، إلا أن فيه ثغرة ، ووصفها لهم . فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ، ووطأ الله لهم أسباب الفتح بان أرسل السماء برذاذ أخفي دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدا حتي عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حراس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقا بالذى نالهم من المطر والبرد . فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل . وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا ، ورجعوا الي الراعي فى دلالتهم على الثغرة التي ذكرها فأراهم إياها فاذا بها غير متسهلة التسنم ( سهلة التسلق ) إلا انه كانت

فى أسفلها شجرة تين ، مكنت أفنانها من التعلق بهـا ، فصعد رجل من أشداء المسلمين فى أعلاها، ونزع مغيث « القائد » عمامته ، فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضا حتي كثروا على السور . وركب مغيث ، ووقف من خارج ، وأمر اصحابه المرتقـين للسور بالهجوم على على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرا منهم، وكسروا أقفال الباب وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملـكوا المدينة عنوة . . »

إلا أن حاكم المدينة تراجع على عجل من القصر الى كنيسة في غرب قرطبة ، وتحصن بها. وكان بالـكنيسة ميرة . وكان الماء يأتيها من قناة خفية تحت سورها . فحاصر مغيث البقعة كلها . وظل فى حصاره ثلاثة أشهر وهو يعجب من صمود المحاصرين كل هذه المدة .

وخطر له أن يستعين بعبـد اسود كان معه في (الخط ف) أحد من بهذه الـكنيسة عسى أن يدله على منفذ اليها. وكان هذا العبد نهما. فصعد الى شجرة تين يأكل منها قبل أن يقوم بعمله . وبصر به حراس الـكنيسة . فاختطفوه وأسروه قبل أن يأسرهم . وما أن رأوه حتى فزعوا أعظم الفزع فلم يسبق لاحد منهم أن رأى انسانا

اسود اللون . وحسبوا ان الرجل صبغ نفسه بالسواد لأمر يراد . فجردوه من ثيابه. وذهبوا به الى مجري الماء الذي يستسقون منه . ليغسلوا جسده ويكشفوعما تحت هذا اللون ولكن الغسل لم يفد ،وظل الاسير اسود كما هو..

فاقبلو عليه بقطع الحبال وغيرها يحاولون الكشف عما تحت هذا اللون . فأدموا جسد الاسير دون طائل .. وقد بقى في أيديهم سبعة أيام . عرف فيها طريق الماء وقوة الحصن . ثم تمكن من الفرار فى نهاية اليوم السابع وأخبر مغيثا بما حدث فأسرع المسلمون الى الماء فقطعوه عن أهل الكنيسة فأيقن المحاصرون بالهلاك . وخيرهم مغيث بين الاسلام أو الجزية .ولكنهم رفضوا الامرين جميعا . فلم يجد مناصا من اشعال النار فيها واحراقها . وقد هلكوا جميعا الا قائدهم الذي فر .. وقد لمحه مغيث فطارده مطاردة عنيفة حتى أدركه بعد لاي وأخذه أسيرا . وكان حاكم قرطبة هو الامير الوحيد الذى وقع في الاسر ولم يصالح المسلمين . وقد استبقاه مغيث حتى يقدمه لامير المؤمنين الوليد عند ذهابه الى دمشق . وقد اسميت هذه الكنيسة ( وهى كنيسة القديس جورج )

التي صبر أهلها كل هذا الصبر بكنيسة الحرقى ولها مكان مقدس في نفوس نصارى الاندلس لحسن بلاء من آوى اليها وتفضيلهم الموت على التسليم .

هذا ما كان من جيش مغيث ، وفتح قرطبة

وأما جيش مالقة فقد وفق ايضا

وقد حاصر جيش غرناطة المدينة ، وافتتحها عنوة وبقيت فيها حامية من المسلمين ، مع نفر من اليهود يعملون تحت امرتهم لصيانة الامن فيها . يقول المقري : «صار ذلك سنة في كل بلد يفتتحه المسلمون أن يضموا يهوده إلى القصبة مع نفر من المسلمين لحفظها ، ويمضي معظم الناس لغيرها . وإذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخلفين مافتح . . »

واما جيش طارق الذى توجه إلى طليله العاصمة فقد بلغها ، بعد ان حاز القرى في طريقها . وقد فوجىء عند وصوله إليها بأن وجدها خالية من أهلها . ووجد حاميتها التجأت الى مدينة حصينة بجبل قريب تسمى مدينة المائدة ؛ لما قيل من أن فيها مائدة سليمان بن داود وقد تمكن طارق من اقتحام هذا المعتصم الجبلي ، وازال حاميته ، وظفر بكنوز طليطلة كلها وكانت نقلت اليها

كما ظفر بهذه المائدة . ويظهر أن كانت هناك مائدة فعلا . وهي احدى نفائس الفن القوطى . فليس بمعقول أن تكون مائدة سليمان . وان كان بعض المؤرخين قد عنى نفسه في البحث عن نسبتها له وذكر الطريقة التى انتقلت بها إلى اسبانيا . وقد لعبت هذه المائدة دورا كبيرا فيما بعد . وذكر عن صفتها أنه كانت لها ثلاث مئة وخمسه وستين رجلا (بعدد أيام السنة) وأنها كانت خضراء من زبرجد .

والاقوال تختلف فيما صنع طارق بعد انملك طليطلة فقد قيل انه استمر في زحفه الي ارض جليقية حتي انتهي إلى مدينة استرقة . وقيل ان الوقت لم يتسع له وكل ماانتهي اليه هو العاصمة

* * *

وكان مقام طارق بالاندلس ، وفوزه بكل هـذه الفتوح في عام واحد . ويحسن بنا أن نذكر ان طارقا وهو بربرى من سلالة الوندال ـ ويقود جيشا من جنسه ، كان برى فى الاندلس وطنه الاول الذى طرد منه اجداده القدماء بعد غارة القوط عليها ، واقصائهم سكانها الاول الى الشمال الافريقى. فهو فى فتحه ليس

بدار غربة ، وانما هو في وطنه الاصلى . واذا كان قد حارب القوط في جلد وشدة فهو يحارب قوما أغاروا على بلاد آبائه ، واغتصبوها بغير حق . . ولو انطارقا كان فى ظرف غير هذا الظرف ، إذن لمحق القوط محقا ، ولازالهم من الارض كلها . ولكن طارق اليوم غير هؤلاء الآباء الذين أنحدر منهم . هو طارق المسلم الذى آمن برسالة محمد ، والذى يقبل على هذه البلاد لينشر فيها دينه الجديد ، دين السماحة والتوحيد. فلاحقد ولا موجدة وعفي الله عما سلف في القرون الخالية . . ولعل آخر مايمثل نزعات هؤلاء الفاتحين للاندلس هذه الا بيات من الشعر التى أنشدها أحدجندطارق وهم يجوزون المضيق الي اسبانيا قال :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا (١)
عسى أن يكون الله منا قد اشتري ..
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
اذا مااشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا
اذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

---

(١) سفن مدهونة بالقار

- ٦ -

## بين موسى وطارق

ذكرنا أن طارقا طلب من موسي بن نصـير مددا ، وهو فى أول زحفه على الاندلس فوافاه به على عجل ، ثم أقام بالقيروان حيث كان ينتظر الانباء .. فلما انهالت عليه الانباء تصف فتوح طارق، وتوفيقه الذى لايدانيه توفيق ، أكلت قلبـه الغيرة ، فكتب إلي طارق يأمره بالوقوف حيث يلقاه كتابه هـذا ، ويحذره من مخالفة أمره . فجمع طارق اركان حربه ، وباحثهم في أوامر موسي ، وقال لهم ان من خطل الرأي وسوء التدبير التوقف عن الفتح ، اذ يخشي أن يجمع الاسبان جموعهم من جديد ، ويكروا على الجيش الفاتح ، وهو قليل عدده فتكون كارثة ما بعدها كارثة .. وقد أقره ضباط جيشه على هذا الرأي ، واتفقوا جميعا على الاستمرار في الفتح. وكتب طارق إلى موسي يعلمـه بأنه لم يستطع إيقاف الزحف ، وأبدى له الاسباب . .

وهنا لم ير موسي بدآ من المسـير إلي الاندلس .

فعجل بجمع جيش بلغت عـدته عشرة آلاف مقاتل ، وجاز به المضيق ، وكان نزوله في اسبانيا فى ابريل سنة ٧١٢ أى بعد مسير طارق بعام . وطلب موسى من ادلائه أن يدلوه على طريق يسير فيه غير الطريق الذى زحف منه طارق .. وكان له ما أراد . فبدأ زحفه من شدونه حتى انتهى إلى اشبيليه . وقد ذكرنا قبـل عن المقري أن أهلها صالحوا طارقا واستأمنوه . ويظهر أنها انتهزت فرصة ذهابه عنها ونقضت العهـد ، وحصنت نفسها ، وزادت فى حاميتهـا ، فحاصرها موسي أشهراً طويلة وهي ممتنعة عليه ، حتي اذا أجهد الحصار الطويل المدينة أضطرت إلي التسليم فدخلها أمير افريقيـة ، فاذا هو فى مدينـة من أعظم المدائن، خلف فيها الرومان ـ إذ كانت عاصمتهم قبل دخول القوط اسبانيا ـ أعجب الآثار ، وافخم آيات العمارة . حتى أن مؤلفي العرب القدماء يسهبون في وصفها ، ويذكرون أنها على الرغم من نقل الملك منها إلى طليطلة ظلت عاصمة اسبانيا الدينية ومقر كنيستها العظمى .

وعمد موسي الي ما كان يعمد اليه طارق ، فأبقى فى المدينة حامية اسلامية ، يأتمر بامرها اليهود الذين كانوا

يعاونون الفاتحين كل المعاونة انتقاما من اسبانيا المسيحية وما صنعت بهم فى أيام ملكها الذاهب .

وانحدر موسي بن نصير من اشبيلية الي غرب الاندلس ثم إلى البرتغال . وبلغه فى مسيره أن أهل اشبيليه انتقضوا مرة أخرى وثاروا على حاميته فقتلوا منها ثمانين رجلا . فأمر ابنه عبدالعزيز بن موسى بالعودة اليهم وتأديبهم ، فصدع عبد العزيز بأمر أبيه ، وأعاد سلطان الاسلام إلي هذه المدينة القديمة ، ولم تتحرك فيها ثورة بعد هذا

وكان اعنف ما لقي موسي من مقاومة عند حصاره لمدينة « ماردة » . وهي أحدي مدن اسبانيا القديمة ، ومن بقايا العهد الروماني ، بناها أغسطس ، وشيد فيها الكثير من المعابد والملاعب والجسور حتي كانت تلقب « روما الاسبان » ولمناعة حصون هذه المدينة ، وشدة اهلها في المقاومة أضطر موسى إلى أن يلجأ لحيلة حربية فأظهر أنه منهزم عن المدينة ، وصدق حماتها هذه الهزيمة المصطنعة فغادروا معاقلهم ، لمطاردة المسلمين ، فاذا بكمين موسي يفاجئهم بهجوم عنيف لا يبقي عليهم ، ولا يذر ثم التقى موسى بطارق

أما طارق ، فقد كان حفيا بأميره ، خرج الى ظاهر طليطلة يتلقاه بالبشر والترحاب . . وأما موسى فكان مربد الوجه ، بادي الغيظ ، تنتفض اطرافه من الغضب . . فما أن رأي قائده حتي علا رأسه بالسوط ، وأهانه بالقول وبالضرب أبلغ اهانة ، لانه خالف أمره ، وأمعن في الفتح دون رأيه .. ثم أمر به ان تحلق رأسه كما يصنع بالخاطئين المذنبين ، ثم زج به فى السجن . وطالبه بقائمة من الذهب والجوهر ، وبمائدة «سليمان» ويظهر أن طارق بن زياد كان يتوقع هذا المصير ، فنزع من المائدة رجلا من أرجلها أخفاها ثم قدم لموسى المائدة وجميع مالديه. فلما سئل عن الرجل المفقوده ، قال انه لا يعلم من أمرها شيئا ..

ولعلنا اذا فتشنا فى خبايا التاريخ واطوائه لانكاد نظفر بحادث كهذا الحادث . فعلى كثرة ماصنع الحقد والحسد بالناس ، وعلى كثرة ما استبدت النزوات والشهوات بالافراد والجماعات ، وعلى كثرة ما نعرف من مظاهر الكنود والعقوق ، لم نعرف حادثا كهذا الحادث في غرابته وفي عمق دلالته .. قائد ظفر بكل هذه الامجاد العراض ، يخرج الي ظاهر المدينة للقاء سيده ، ومن

ورائه قواده ورجال جيشه ، وأسراه وأعوانه من فرنجة وبربر وعرب ، وما يكاد يلمح اميره حتى يهبط من على جواده ، ويسعى راجلا ، فيكون الرد على ترحيبه السوط يعلو رأسه وسائر بدنه ، والصخب والشتائم تتناوشه من كل وجه ..

ان حكم الخلق ، وحكم التاريخ ليشتد ويقسو على موسى بن نصير ، ولا يشفع له إلا سابق بلائه فى افريقية والا هذه الرحلة المسلحة التي تعقب بها طارق بن زياد . ولم تكن الرحلة كلها شرا ، وانما ساعدت على تثبيت دعائم الفتح ، وتحطيم مقاومة القوط .. ثم ان موسي نفسه لقي هذا المصير الذى لقيه طارق .. بل لقيه بصورة اعنف واقسي ، ولكنه لم يكن فى دار عزه ، وفي ذروة مجده .. بل كان فى بلاط الخليفة بدمشق ، فردا كسائر الافراد.

وامكن طارق ان يبلغ شكواه الي امير المؤمنين الوليد في دمشق ، فسير الوليد اوامره بالبريد الي موسي ان يخلي بسبيل طارق وان يحسن اليه . وكان موسي قد شفي حقده من القائد الباسل ، ووصل من اذلاله الي ما يريد .. ثم انه لم تكن به طاقة على معارضة امير المؤمنين .

وفى كتاب تاريخ العرب في الأندلس لدياب بك

« جمع موسى رؤساء الجيشين ليحاكم طارقا فسأله امامهم عن مخالفة أمره ، فاعتذر طارق بأن الحالة قضت عليه بذلك وان رؤساء جيشه اجمعوا رأيهم على متابعة السير . ( ولولا ذلك لما كان فتح العاصمة ، وامهات المدن فى زمن قريب ) . ماأقنع موسى هذا الاعتذار ، بل عزل طارقا من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة الى مغيث الرومي ، ولكن هذا الشهم ابت نفسه الكريمة ان يخلف قائده ودافع عنه بجرأة امام الوالي . ولما اصر على ماحكم به ، بلغ مغيث المشكلة الي الخليفة ليفصل فيها . فورد منه الامر باعادة طارق الى قيادة الجيش »

أسترد طارق حريته ، وعاوده نشاطه ، فكان هو القائد الفعلى للجيوش مرة أخرى ، وروحها الوثابة ، وراسم خطط الفتح من جديد . سار طارق بالجيوش ، وتبعه موسى . فكان طارق يفتح ، ويترك لموسي التمكين للفتح وعقد المعاهدات وترتيب الاعمال الادارية فى الامصار المفتوحة . واستوليا على أقاليم اراغونه وقشتالة وقطالونية ـ حتى وصلا الى جبال البرانس ، وهى الحد الفاصل بين اسبانيا وفرنسا .

وبوصولهم إلي هذه الجبال تكون الاندلس كلها قد دانت لهم الا ركن فى أقصي الشمال الغربي من اسبانيا تكتنفه الجبال اسمه ليون جاليسيا ، فقد أرجأه موسى حتي يلقي نظرة على ماوراء جبال البرانس ـ اى فرنسا.
وقبل ان يعود من فرنسا كانت اوامر دمشق قد جاءته لكي يعجل بالعودة والكف عن الفتح ، فساروولا يزال هذا الركن بعيدا عن سيطرة المسلمين . ويشاء الله أن تكون هذه المنطقة الاخيرة هى الملجأ الذى يتجمع فيه القوط ، ويتخذونه معتصما ، ثم يرابضون فيه ثمانية قرون كاملة يدبرون لحركة استقلالية . وقد ظفروا بهـا في نهـاية الأمر .

فمـاذا كان يريد موسى وطارق من هذه الجولة فى فرنسا ؟ .. .

لقد طاف بذهن الرجلين هذا الحلم الذي طالما داعب القواد الاسلاميين فيشمال افريقية وهو النفوذ الي اوربا من اسبانيا ثم اجتياح الشاطىء الشمالى للبحر المتوسط ، والاستيلاء على فرنسا وايطاليا والبلقان ، ثم طرق ابواب بيزنطة ( القسطنطينية ) من الغـرب بدلا من الشرق ، والهبوط الي الشام من آسيا الصغري .

وقدعلم الوليد بن عبدالملك بتفاصيل هذا المشروع ، وخشى مغبة هـذا الفتح ـ لا على المسلمين ـ ولـكن على الخلافة نفسها ، وكره ان يأتيه وهو في الشام جيش غاز ينال كل هذه الامجاد وقد يهـدد قائده دمشق نفسها بأعظم الاخطار . فـكتب بالـكف عن الفتح . بالعدول عن هذا المشروع ..

ومن المرجح ان النصر الذي لقيه المسلمون في اسبانيا كان يدفعهم الي نصر آخر ، وأن تأخـذ موجة الفتح باعناق موجة أخرى ، وما هي إلا أعوام قليلة حتي يكون المسلمون قد ركزوا أعلام التوحيد فى أوربا ، وتـكون الدنيا كلها ، ولا عقيدة لها إلا عقيـدة هؤلاء الغزاة البواسل القـلائل الذين ارسلهم نبيهم محمد عليه السلام ليجربوا فتح الامبراطوريات ، ويعلمهم كيف يجرؤ الايمان صاحبه على الاتيان بالمعجزات

ولـكن أنانية الامراء هي التي تحول دون الـكثير من مشاريع الحياة العظمى . . ولقد جرب المسلمون تحت قيادة طارق وموسي النفوذ الي ماوراء جبال البرانس ، ثم تمت محاولة ثالية بعد سنوات قليلة .

في سنة ٧١٩ احتل المسلمون قسما من جنوب فرنسا ،

حتى وصلوا الى مدينة ناربون . وبعد عامين وصلوا الى تولوز . وفي سنة ٧٣٠ احتلوا مدينة افينيون، ثم استمروا في مطاردة الفرنسيين على نهر الجارون، وحدثت معركة عنيفة عند بوردو

وفي سنة ٧٣٢ التقى المسلمون بالملك شارل بن ببين ، ودارت معركة عنيفة هزم فيها المسلمون . وقرروا بعد هذه الهزيمة العدول عن مشروع الغزو ، ولو ان الخلافة أو امارة افريقية كانت تشجع هذا المشروع ، إذن لعاود المسلمون هجومهم ، ولظفروا كما ظفروا في مواطن كثيرة . .

يقول لين بول : كان المسلمون يتوقعون نصراً كهذا النصر الذى احرزوه في اسبانيا، فتخضع لهم فرنسا الجميلة من كاليه الى مرسيليا . ولقد حبست اوربا أنفاسها خلال هذه المعركة التي تعد احدى المعارك الخمس عشرة التي تقرر فيها مصير الدنيا . وكان على هذه المعركة ان تجيب على السؤال الآتى :

هل تبقى اوربا على مسيحيتها ام تعتنق دين الاسلام ؟ .

وهل ستبقى « نتردام » كنيسة التثليث أم تتحول

الى مسجد محمدي. وعند مايحين وقت الصلاة في كنيسة سنت بول ، هل كانت تردد صلوات المسلمين أم تسمع ترانيل القسس والرهبان . ولقد أجابت المعركة على هذه الاسئلة ، فأبقت لاوربا مسيحيتها . ولو كان الجواب غير هذا ، لما وقف جند محمد إلا عند بحر المانش . . . ولكن شاءت الظروف ان يصل مد الفتح الاسلامي الي نهايته ، وأن يعقب المد جزر

* * *

نعود الى طارق وصاحبه وهما عند جبال البرانس ففي نفح الطيب :

« ان موسي بن نصير نصره الله نصرا ماعليه مزيد ، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه . حتي خرج على باب الاندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الارض الكبيرة ، فاجتمعت الافرنج الي ملكها الاعظم « قارله » وهذه سمة لملكهم ، فقالت له : ماهذا الخزى الباقى في الاعقاب . كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس حتي أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل وقلة عددهم ، وكونهم لادروع لهم . فقال لهم ما معناه :

الرأي عنـــدى ألا تعترضوهم في خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره . وهم في اقبال أمرهم . ولهم نيات تغنى عن كثرة العـدد ، وقلوب تغني عن حصانة الدروع . ولـكن أمهلوهم حتى تمتليء ايديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويسـتعين بعضهم ببعض فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر »

وتصف هذه المحاورة بطبيعة الحال ماحدث فعلا ، بعد ان صدت خلافة دمشق هذا الجيش الملتهب المتحمس عن استئناف الغزو . .

والذي حدث ان الوليد بعث الى موسي بن نصـير رسولا يأمره بالعودة ، فـكره موسى ان يعود، ولا يزال أمامه عمل كثير ، فأغري الرسول بالمال، وطلب إمهاله على ان يقسم معه الغنائم الجديدة ، فبقى واستبطأ الولـيد رسوله ، فأوفد رسولا آخر ، شدد عليه أوامره فعاد معه موسي بن نصير وطارق بن زياد .

وترك موسي ابنه عبد العزيز في حكم الاندلس واتخذ مقره اشبيلية ( ١ ) العاصمة القديمة لاتصالها بالبحر ، كما

( ١ ) فى ابن خلدون انه اتخذ قرطبة عاصمة له

ولى ابنه الاكبر عبد الله ولاية افريقيــة وكان مقره القيروان .

وقفـل موسي وطارق عائدين الي المشرق فى آخر سنة خمس وستين هجرية . وكان مقام طارق بالاندلس قبـل وصول موسي سنة . ومقـامه بعد وصوله سنتين واربعة اشهر

— ٧ —

## مصير موسى وطارق

استحثت رسل امير المؤمنين الوليد الفاتحين الكبيرين وكان هذا الركب السائر نحو المشرق يحمل علي العجب من أمره . . فقـد صحب موسى بن نصير معـه سباياه وكنوزه التي غنمها في فتوحه الافريقيةوالاندلسيةوفى اغارات اسطوله على جزر البحر

وفي تاريخ ابن خلدون ان موسيوصل وهوراحل الي دمشق مدينة ألقيروان عام خمس وتسعين هجرية ، وارتحل الي الشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنـائم والذخائر والاموال علي العجـل والظهر

(الدواب) . يقال كان من جملتها ثلاثون الف فارس من السبي

وحدث في الطريق خلاف جديد بين موسى وبين طارق ومغيث سفير الوليد وفاتح قرطبة . فقد كان من بين الاسرى حاكم قرطبة الذي ذكرنا انه وقع أسيراً عند فتح هذه المدينة . وذلك ان موسى اراد أن ينزع فضل أسر هذا الامير القوطي من مغيث وطارق ، فهم بقتل الاسير فهدداه بالشكوى لامير المؤمنين . وعجلا فعلا بالمسير الي دمشق ليسبقاه ، ويحدثا عن أخطائه جميعا

وعند وصول موسى الي فلسطين ، لقيه سليمان بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد وولي عهده ، وطلب منه التمهل فى مسيره الى دمشق لان امير المؤمنين على فراش الموت . وسليمان يطمع في أن يتسلم هو ما أحضر موسى معه من الاندلس . ولكن موسي لم يلب هذه الرغبة . وحث مطيه حتى وصل الي دمشق ، وبعد وصوله بايام قليلة جدا مات الوليد وتولي مكانه سليمان فكان غاضبا علي موسى لانه لم ينفذ رغبته . ومن هنا بدأت الوحشة بين الخليفة الجديد . وبين امير المغرب :

ويذكر المقري السبب الآخر فى هذا التغاضب بين

الرجلين . وهو ان طارق بن زياد سبق موسى في مسيره :
ولقي سليمان وشكا له من موسى مر الشكوي فغير قلبه
عليه . » فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه . فأغلظ له
واستقبله بالتأنيب والتوبيخ . . فاعتذر له ببعض
العذر . »

ويظهر ان موسى كان ينسب لنفسه فتوح الاندلس
وغنائمها كلها . فلما قدم مائدة سليمان الي الخليفة . ذكر
له انها احدى غنائمه . فكذبه طارق وسأله عن رجلها
الضائعة ان كان صادقا . فسكت موسي ولم يحر جوابا .
وتقدم طارق بهذه الرجل . فكانت دليل كذب موسي
وبذا زاد اتهام الخليفة للامير . وامر به فأهين . ثم أمر
به فسجن ثم فرض عليه غرامة فادحة . تختلف المراجع
في تقديرها فهي بين مليون دينار ومئتي الف .

يقول ابن عذاري في كتابه ( البيان المغرب ) : بعث
سليمان بن عبد الملك الى موسي فعنفه بلسانه وقال والله
لأقلن غربك . ولأفرقن جمعك . ولاصغرن قدرك .
فرد عليه موسي : أما قولك تفل من غربي وتخفض من
قدري . فان ذلك بيد الله والي الله لا اليك . وبه استعين
عليك . فأمر به سليمان فوقف في يوم صائف شديد الحر

وكان موسى رجلا عظيما بادنا . فوقف حتى سقط مغشيا عليه . ثم نظر الى عمر بن عبد العزيز واستنجد به فشفع فيه عمر فسأل سليمان من يتطوع من رجال البلاط للاحتفاظ به . فقام يزيد بن المهلب وطلب ضمه اليه . وذلك ان ابن المهلب كان يمنيا . وكان موسي ينتسب الي اليمن

فلما فرضت الغرامة على موسي عجز عن أدائها . وأخذ يسأل رؤساء القبائل اليمنية حتي أمدوه بنصف المال . فقدمه لسليمان بن عبد الملك . ويظهر انه اكتفى منه بهذا القدر بعد ان عزله عن جميع أعماله . وضمه الي حاشيته

ويذكر ابن عذاري ان سليمان قال لموسي : ما الذى كنت تفزع اليه عند حروبك ومباشرة عدوك . قال : الدعاء . والصبر عند اللقاء. قال : فأى الخيل رأيتها في تلك البلاد اسبق . قال : الشقر . قال : فأي الامم كانوا أشد قتالا . قال هم أكثر من أن أصفهم . قال أخبرنى عن الروم . قال : اسد فى حصونهم .عقبان علي خيولهم ونساء فى مراكبهم . ان رأوا فرصة انتهزوها وان رأوا غلبة فأوعال تذهب فى الجبال . لايرون الهزيمة عارا .

قال فأخبرني عن البربر . قال موسى . هم أشبه العجم بالعرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية غير انهم أغدر الناس . لا وفاء لهم ولا عهد . قال سليمان فاخبرني عن الاندلس . قال . ملوك مترفون وفرسان لا يجبنون . قال فاخبرني عن الافرنج . قال : هناك العدد والعدة والجلد والشدة والبأس والنجدة . قال فاخبرني عن الحرب بينك وبينهم . . اكانت لك او عليك فقال . اما هذا فوالله ماهزمت لي راية قط ولا بدد جمعي ولا نكب المسلمون معي منذ اقتحمت ( سن ) الاربعين الي ان بلغت الثمانين ( ١ )

وقد ذكرنا قبل أن موسى ولد عام ١٩ للهجرة . وكان قفوله الى دمشق فى سنة ٩٦ هـ فيكون قد بلغ عند عودته حدود الثمانين الا قليلا .. ولم تكتف أحزان موسى وهو شيخ يزحف الي آخرته ـ باذلال سليمان بن عبد الملك له ، ولكن هذا الخليفة القاسي الظالم ارتكب جرما آخر أشد ايلاما وأبلغ تأثيرا ، لا في نفس موسى بن نصير وحده ، ولكن فى كل نفس انسانية . فقد

---

( ١ ) ص ٢٠ الجزء الثاني

بلغ من نقمته عليه - وعلى البنين جميعا - أن دس إلى أهل الاندلس بقتل ابنه عبد العزيز بن موسى ، فقتل وسيرت رأسه الى دمشق ، ودفعت الى سليمان في مجلسه العام ، وموسى جالس بحضرته فقذف برأس الابن فى فى حجر الاب ، فدمعت عينا الشيخ وتجلد للمصاب ، ولم يزد على أن قال . هنيئا له بالشهادة . وقد قتلتموه وكان والله صواما قواما .

ويذكر المقري أن هذا الحادث من وصمات سليمان التي تعد له طول الدهر . ولم تقتصر زلات هذا الخليفة على ما صنع بقواد المسلمين وأمرائهم فى المغرب ، بل نال بضره وأذاه هؤلاء الفاتحين الكبار - الذين نفذوا بالاسلام الى الهند ، وضبطوا الدولة فى عهد سلفه الوليد أمثال قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم الذي بكى أهل السند حين بلغهم تعذيب سليمان له فى قتله ، وأسرة الحجاج جميعها ..

وما أبعد الفرق بين تصرفات خلفاء هذا العهد ، وبين تصرفات رجل عظيم مثل عمر بن الخطاب ، الذي كان يختلف مع قواده وامراء جيوشه ويبلغ بينهم الخلاف أحيانا حد التشاتم فى الكتب والرسائل ، مثل مادار

بينه وبين عمرو بن العاص، فما كان يبخس الناس حقوقهم وما كان يخفض من مكانهم أو ينكر من سابقة جهادهم. أننا نراه يعزل خالد بن الوليد ثم يذيع في الامصار كتابا يشير فيه بفضل القائد الجبار. ويعظم حقه ومكانه فأين هذا من ضيق العقل، وضيق الخلق الذى كان يستبد بالخلفاء بعد عمر، فيحيلهم الي ملوك من أرخص طراز لا يتأدبون بأدب الاسلام ـ ولا يتعلمون من صحابة محمد عليه السلام.

لقد أخذنا على الوليد بن عبدالملك منذ حين أنه أوقف موجة الفتح، وكانت توشك أن تكتسح فرنسا ثم أوربا كلها. فلما حاول المسلمون بعد حين معاودة الفتح كان أعداؤهم قد تنبهوا الى خططهم ووقفوا لهم بالمرصاد وهذه زلة عظيمة من الوليد نحصيها له وترجع سببها الي نظره لشؤون الاسلام، نظر ملك، لا نظر خليفة لرسول الله .. ونقول عنه هذا القول. على الرغم من أن رقعة الامبراطورية وصلت فى عهده الى مالم تصل اليه قبله أو بعده. فقد كانت الجيوش الإسلامية تغزو الهند، وتجد المسير في وسط آسيا كما أن الاندلس كلها أضيفت الي رقعة الامبراطورية فى عهده. تقول عنه هذا القول

وهذ من هو مكانة بين خلفاء بني أمية ، وخلفاء العباسيين أجمعين .. فماذا نحن قائلون عن أخيه سليمان بن عبد الملك الذي حطم سيف الاسلام بما صنع مع كبار القواد وعظماء الرجال . غضبا منه على اليمنيين . وانتقاما من هؤلاء الذين اتبعوا مشورة الوليد فى ولاية العهد ..

لقد خسر الاسلام في حكم سليمان ـ ولم يدم حكمه أكثر من عامين ـ الشيء الكثير . وكان بدء تدهور الامويين وقد حاول هشام من بعده ايقاف هذه التدهور . ولكن العلة كانت أقوي وأفتك . فذهبت ريحهم . كما خلفت فى صفحة الحكم الاسلامى تقاليد سوداء . لم يتردد كثير من خلفاء العباسيين والعثمانيين فى الاخذ بها من بعضهم .

...

ولعل أقسى ما يوصم به هذا الحكم في دمشق . أننا وجميع المؤرخين غيرنا ، جددنا في البحث عن طارق ابن زياد بعد وصوله المشرق فلا نعثر له على أثر .

لقد غمر . وضاع ذكره . وأصبح من عامة الناس . وهل يمكن لحكم يقوم على الانانية أن تزكوا فيه ملكات النابهين ، أو يستفيد المجموع من نبوغ النابغين .

كان اسم طارق في الغرب يثير الهلع في كل مكان يعيش فيه أعداء الاسلام . كما يثير الاكبار والاعجاب في كل مكان تظله أعلام التوحيد . فلما وصل إلي مقر الخلافة . ضاع وغمر . ولم يعن مؤرخ من القدماء نفسه بالبحث عنه وتقصى أثره

***

ومن الخير ان نذكر كلمة عن الفرق بين هذين الرجلين : طارق وموسى من الناحية العامة ، فاليهما يرجع فضل الفتح . وهما من غير شك بطلا هذه القصة الرائعة . قصة ضم الاندلس الي حظيرة الاسلام

ذكرنا من انباء موسى في فجر حياته انه كان مغامرا حبا في المغامرة . لا عن عقيدة راسخة . فقد انضم الي صفوف الزبيريين . وقاتل الامويين . فلما هزم ابن الزبير فر الى احد الامراء الامويين واحتمي به . فكأنما كان يقاتل ـ لا عن عقيدة ـ ولكن رغبة في ان ينتصر صاحبه فيكون له في دولته المكان الذي يرجوه . وعرفنا عنه انه لما تولي احد الاعمال بالبصرة اختان الاموال . وفر مرة اخرى من سلطان الدولة . حتى سدد عنه والى مصر عبدالعزيز بن مروان

بعض دينه

وترى قصته مع طارق لا تدل على نبل أو ترفع. كما أن سيرته في جمع الغنائم والاسراف في أخذ الاسري مما يستوقف النظر من غير شك ـ ولقد رأيناه يحاول أن ينتهب فضل كل رجل يعمل معه ويحاول أن يمحي آثاره . ولولا ساق مائدة الزبرجد التي أخفاها طارق لما عرف أحد ـ ولما عرفنا نحن اليوم ـ أن طارقا هو فاتح طليطلة

ولكنه الي جانب هذا كله . كان رجلا شجاعا الى أقصي حدود الشجاعة . خبيرا بفنون الحرب . فطنا حذرا . فهو فى معاملاته مع الكونت يليان أو في تصرفاته مع قبائل البربر يكشف عن عقلية ناضجة . وذكاء موفور . وإليه يرجع الفضل فى اقرار الاسلام بين قبائل البربر . كما أن الظروف المختلفة عاونت علي القيام بحملة الفتح في الاندلس . فشغلت هذه الحروب البربر عن أن يعاودوا فتنهم وثوراتهم التي لم تنقطع ـ فكان موسى هو الذى أتم عملا بدأه عمرو بن العاص في سنة ٢١ هـ . وأمكنه بعد سبعين سنة كاملة من جهاد متصل وضحايا في الانفس والاموال أن يضم

الشمال الافريقي بصفة اخيرة الى الدولة الاسلامية

أما طارق بن زياد ، فكان شجاعا كريما أبى النفس كثير العفة عظيم الحظ من المقدرة الحربية ، فلم يتصرف كما تصرف موسى في الاموال ، فيكتنزها ويحتجزها ، وانما كان يفرق الغنائم بالعدل على جنده ، ويبقى الخمس كاملا ، ويسيره الى دمشق أولا بأول ، ولهذا كان جنده يحبونه حبا جما ، ولذلك نرى أحد ضباطه ـ مغيثا الرومى ـ يأبي أن يتولي القيادة مكانه ، ويسرع الي دمشق يشكو موسي بن نصير ، ويعود ومعه أمر لموسي وطارق كي يسرعا الى الوليد في دمشق

ولعل اتصال طارق بالخليفة فى عام الفتح ، وتخطيه موسى بن نصير كان من أهم أسباب تذمر موسي وشكواه وقد أبلغ هذه الشكوى للوليد نفسه

ومهما يكن أمر الرجلين ، فقد أفادا الاسلام والحضارة والرقى البشرى كله بما صنعا فى الاندلس ، وانتهيا جميعا إلى مصير يبعث الي الحزن ، فواحد نسي ، وهو طارق ، والآخر مات فقيرا دامع العين علي ابنه وهو موسي

## ٨

### تحت راية الاسلام

كان أول الولاة المسلمين بعد الفتح هو عبد العزيز ابن موسى بن نصير وكان عمله شاقا بعد رحيل القائدين الفاتحين . ولكنه جد واجتهد حتى ضبط المناطق الثائرة وأقر الامن فيها .. وقد حفظت لنا مكتبة الاسكوريال باسبانيا أثرا نفيسا جدا من عهد موسى هو النص الاصلي لمعاهدة عقدت بين عبد العزيز وبين تيودمير حاكم مرسيه وهو الحاكم القوطي الذى قابل طارق بن زياد عند نزوله إلي الاندلس . . وفي هذه المعاهدة التى كتبت بالعربية واللاتينية. تحديد للصلات التي انشأها قواد وحكام الاسلام مع المقاطعات التي دانت لهم بالطاعة . وورد فى هذه المعاهدة شروط الصلح التي نلخصها فيما يلى بعد أن بدأت بالبسملة .

أولا ـ لا يقاتل المسلمون « تدمير » ولا يسبوا نساء مملكته ولا يفصلوا زوجة عن زوجها أو ولدا عن أمه .

ثانيا ـ لا يعارض النصارى في عبادتهم ولا تحرق كنائسهم

ثالثاً ـ تسلم مدن المقاطعة (مرسية Murcia) السبع لعبد العزيز بن موسى . ويتولى تدمير حكمها باسم عبد العزيز

رابعاً ـ تدفع جزية الرؤوس . وهي دينار عن كل غني ونصف دينار عن الفقير . كما أن على الاغنياء أن يدفعوا أربعة مكاييل من القمح والشعير والخل والعسل والزبدة . ويدفع الفقراء نصف هذا المقدار كل عام .

وتاريخ هذه المعاهدة في رجب سنة ٩٤ هـ (٥ ابريل سنة ٧١٣) وقد شهد عليها اربعة من كبار المسلمين الموجودين في الاندلس (١)

• • •

ويقال ان عقد الاتفاق بهذه الشروط اغضب بعض العرب من الفاتحين ، وعدوا عبد العزيز بن موسى ممالئاً للنصارى . وزاد اتهامهم له انه كان قد تزوج الملكة ايلة (Egila) زوجة الملك القتيل ردريك واسماها ام العصم (بكسر العين وفتح الصاد) أي القلائد

(١) براجع تاريخ الامبراطورية الرومانية لجيبون ـــ الجزء الخامس ـ ص ٣٧٢ .

كما نسبوا له انه تهاون في اتمام فتح لوزيتانيا — البرتغال الآن — وبعثوا بشكواهم الى سليمان بن عبد الملك فكانت هي الفرصة التي ينتظرها

وفي تاريخ العرب في اسبانيا : « بلغوا امثالب افتروها على عبد العزيز الى الخليفة سليمان بن عبد الملك . فدفعه سخطه على موسى ان اتخذ رسالتهم حجة للامر بقتل ابنه والي الاندلس . جاء هذا الامر الي خمسة من رؤساء الجيش الممثل اسبانيا ، فضربوا عبد العزيز بالسيوف ضربة واحدة وهو يصلي في المسجد صلاة الصبح ، وقطعوا رأسه ، ووضعوه في علبة ملئت عنبرا ، وأرسلوه الى الخيلفة ، ودفنوا جثته في داره سنة ٩٧ هـ ( ٧١٥ للميلاد ) وكانت مدة حكمه نحو ثمانية عشر شهرا »

ومن نصوص هذه المعاهدة نستطيع ان نستوحي طبيعة المعاملة التي كان يعامل بها المسلمون أهل اسبانيا . وهي كما نرى آية التسامح والرحمة والرعاية لادب الاسلام ورفقه بالامم المفتوحة

وقد كان من نتيجة هذه المعاملة أن حرر رقيق الأرض ، ورفعت الضرائب الباهظة عن الطبقة الوسطى وزال نفوذ الكنيسة البغيض وانقضى عهد الاقطاع

وتحكم أصحابه في الرقاب والاموال . وقد استفاد الحكم الاسلامي في الاندلس بغير قليل من أمراء القوط وكبار حكامهم . فقد ذكر نفح الطيب أن الامراء الثلاثة أبناء « غيطشة » انهم سافروا للقاء الوليد، وانه ولاهم على كثير من الاملاك في الاندلس مكافأة لهم . كما ان الكونت يليان بقي في امارة سبتة ووسعت امارته وزيد فيها . وهذا « تدمير » يبقى في عمله ويسير في قومه سيرة حسنة تحت اشراف الحاكم العام

وأما طبقة اليهود فقد أتيح لها من الحرية والأمن مالم تظفر به في حكم القوط . فقد أبيح لها تملك الارض وكانت محرومة منه . كما أبيح لها الاتجار وبذا أخذت تثرى وتنتعش، ووجدت تحت حكم الاسلام روح التسامح التي خلقت من رجالها علماء ، ومن سائر افرادها أثرياء

إلا أن اليهود كشأنهم دائما تمردوا على هذه النعمة وأخذوا ينشبون أظافرهم في أعناق الشعب الاسلامى في اسبانيا ، باشاعتهم الربا ، واستحواذهم على أكثر مصادر الثروة عن طريق الاحتيال ، فراقبهم حكام المسلمين قليلا ، وضيقوا عليهم بعض الشيء . نقول بعض الشيء لانه ضيق لايناسب ، بل لايبلغ عشر معشار

ماصنع معهم القوط ، فما كان منهم إلا أن لجأوا الي سلاح الغدر والخيانة ، فذهبوا الى بقايا القوط يخطبون ودهم ويرتمون في احضانهم ، وقدموا لهم الاموال ، وعاونوا الفونس السادس علي تملك قشتاله وليون سنة ١٠٨٥ م ، ثم ساعدوا القوط علي ازالة ملك المسلمين من الاندلس كلها .

* * *

وليس في نطاق كتابنا ان نبحث عن تاريخ الاندلس بعد الفتح ، ولكننا نذكر مسرعين ، أن هذا الاقليم ظل تابعا لشمال افريقية من الفتح من سنة ٩١ الى سنة ١٣٨ ويسمي هذا العهد بعهد الامارة . فقد كان امير القيروان يرسل إلي الاندلس واليها ، أو يوافق على الوالي الذى يختاره أهلها . وكثيرا ما كان يبعث الخلفاء الولاة الي الاندلس مباشرة . وكان عهد الامارة من حيث اتصاله بالدولة الاسلامية كثير الاضطرابات لكثرة تغير الولاة ولعدم استقرار النظم الادارية

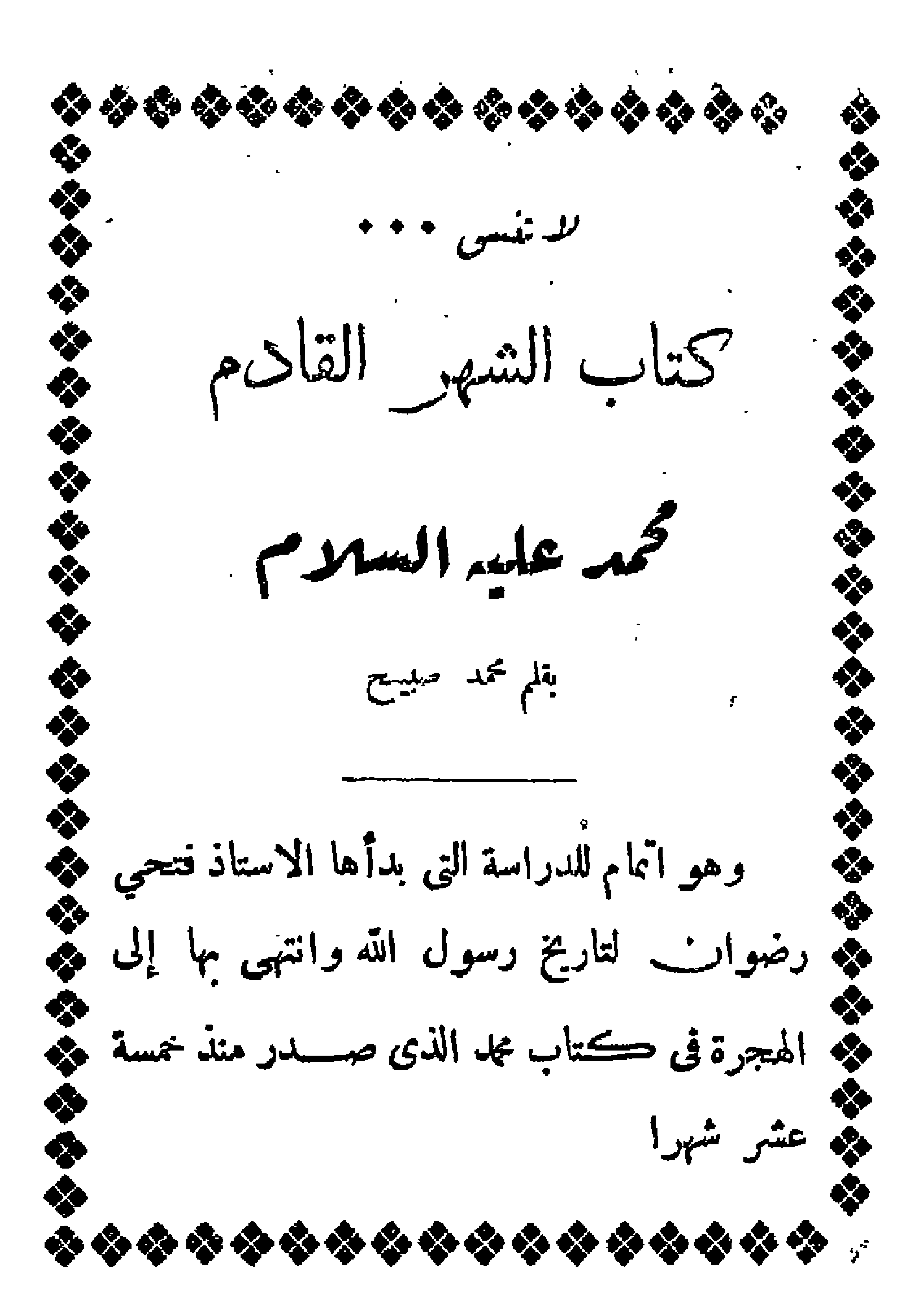
وشاء الله أن ينقضى عهد الاضطراب والخلافات الداخلية بقدوم أحد الامراء الامويين وهو عبدالرحمن الداخل ، أو صقر قريش كما أسماه ابو جعفر المنصور

ـ الخليفة العباسي ـ وقد اسس في الاندلس دولة اموية مستقلة كل الاستقلال عن المشرق ، وعن سيطرة الخلفاء
وظلت هذه الدولة مزدهرة مشرقة حتي سنة ٤٢٢
ثم اعقبها حكم ملوك الطوائف الذى استمر نحو قرنين من الزمان وانقضى عام ٦٢٩ . وأخذ حكم الاسلام بعد هذا ينحسر عن الاندلس وبقي في غرناطة وحدها حتى عام ٨٩٧ وهو العام الذى عبر فيه آخر حكام المسلمين الاندلس الي افريقية ، ومعه جنده
وظلت الاندلس من القرن التاسع الهجرى الي منتصف القرن الرابع عشر ، لم تطأها أقدام جند المسلمين حتى كانت هذه الحرب الداخلية بين حزبى الجمهوريين والوطنيين ، والتي ظلت نحو ثلاثة أعوام ، وكان عون الوطنيين جيش المغرب ( المنطقة الخليفية ) وهو مكون من سلالة أولئك الجند البواسل الذين صحبهم طارق في سنة ٩١ هـ واكتسح بهم حكم القوط في عام واحد
ولقد ادى هؤلاء الجند المسلمون البواسل مهمة الفتح كما أدوها من قبل ، ولكن تحت رايات غير راياتهم ثم اسلموا الحكم الى الحزب الذى ساروا في ركابه ، وعادوا من جديد الي بلادهم ، ينظرون وينتظرون .

ولعل ضميرهم يسأل : هل من رجعة الي هذا الماضي القديم . ماضي الحرية والجهاد . ماضي الهتاف بأن الله أكبر ثم اندفاع الى الموت وساحة الاستشهاد

ما أحوج الاسلام اليوم الي طارق وطارق لا ليغزو ويفتح . ولكن ليحرر هؤلاء المسلمين من ذل الاسر، وينقل أبناء الحرية القديمة ، وسلالة جند محمد بن عبد الله ، إلي حرية جديدة في ظل العقيدة السمحة والسلام الدائم ؟

دار الثقافة العامة في
١٢ جمادى الآخرة ١٣٥٨
٢٩ يوليـــة ١٩٣٩


لا تنس ...
كتاب الشهر القادم
محمد عليه السلام
بقلم محمد صبيح
وهو اتمام للدراسة التى بدأها الاستاذ فتحي رضوان لتاريخ رسول الله وانتهى بها إلى الهجرة فى كتاب محمد الذى صدر منذ خمسة عشر شهرا

تم طبع القسم الاول من كتاب

# حقائق واحلام

بقلم الاستاذ فتحى رضوان

ساعة فى مدينة حابو ـ يوم في بيبان الملكات ـ فجر فى الدردنيل ـ صباح في مقبرة جنوى ـ ليلة فى تل أبيب ـ يومان فى اكسبريس الشرق

وتم طبع القسم الثانى وعنوانه :

مع الكتب والكتاب

---

المحرر المسئول محمد صبيح | طارق بن زياد العدد ١٥ أول أغسطس | الملحق الأدبي لجريدة مصر الفتاة

# دار الثقافة العامة


في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ ( محمد ) عليه السلام بقلم محمد صبيح

| السلسلة الاسلامية | سلسلة قادة الشرق |
|---|---|
| ١ — أبو بكر الصديق (صدر | ١ — فؤاد الاول |
| ٢ — عمر بن الخطاب « | ٢ — شاه ايران |
| ٣ — عمر بن عبد العزيز « | ٣ — الملك فيصل |
| ٤ — أبو مسلم الخراساني « | ٤ — ابن السعود |
| ٥ — أبو جعفر المنصور « | ٥ — محمد عبده |
| ٦ — هارون الرشيد « | ٦ — مصطفي كامل |
| ٧ — المأمون « | ٧ — سعد زغلول |
| ٨ — طارق بن زياد « | ٨ — غازي |
| ٩ — محمد عليه السلام لمحمد صبيح | ٩ — عزيز المصري |
| ٩ مكرر محمد عليه السلام لفتحي رضوان | ١٠ — عبد الكريم بطل الريف |
| ١٠ — أبو حنيفة والشافعي بقلم الدكتور مصطفي الرافعي | |

صدرت سلسلتا قادة العالم ، وقادة الاسلام الأولى في ثلاثة عشر كتابا هي : هتلر ، ستالين ، الميكادو ، موسوليني ، أتاتورك ، ديفاليرا ثم محمد عليه السلام ، علي في جزئين ، معاوية ، خالد ، عمرو ، صلاح الدين

ثمن النسخة : قرشان وللجملة خصم ٢٠ في المائة

١٨ شارع مصطفى باشا كامل القاهرة — مطبعة البيت الاسلامي




| المحرر المسئول | طارق بن زياد | الملحق الأدبي |
|---|---|---|
| محمد صبيح | العدد ١٥ أول أغسطس | لجريدة مصر الفتاة |


# دار الثقافة العامة

في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ (محمد) عليه السلام بقلم محمد صبيح

## السلسلة الاسلامية

١ ــ أبو بكر الصديق (صدر)
٢ ــ عمر بن الخطاب »
٣ ــ عمر بن عبد العزيز »
٤ ــ أبو مسلم الخراساني »
٥ ــ أبو جعفر المنصور »
٦ ــ هارون الرشيد »
٧ ــ المأمون »
٨ ــ طارق بن زياد »
٩ ــ محمد عليه السلام لمحمد صبيح
٩ مكرر محمد عليه السلام لفتحي رضوان
١٠ ــ ابو حنيفة والشافعي
بقلم الدكتور مصطفى الوكيل

## سلسلة قادة الشرق

١ ــ فؤاد الاول
٢ ــ شاه ايران
٣ ــ الملك فيصل
٤ ــ ابن السعود
٥ ــ محمد عبده
٦ ــ مصطفى كامل
٧ ــ سعد زغلول
٨ ــ غاندي
٩ ــ عزيز المصري
١٠ ــ عبد الكريم بطل ا...

صدرت سلسلتا قادة العالم، وقادة الاسلام الأولى في ثلاثة عشر كتابا هي: هتلر، ستالين، الميكادو، موسوليني، أتاتورك، ديفاليرا ثم محمد عليه السلام، علي في جزئين، معاوية، خالد، عمرو، صلاح الدين

ثمن النسخة: قرشان وللجملة خصم ٢٠ في المائة